

قدر الغرف المقبضة

رواية

عبد الحكيم قاسم

الطبعة الأولى : ١٩٨٢

الخطوط للفنان : محمد بغدادى

تصميم الغلاف للفنان : صلاح عنانى

مطبوعات القاهرة : ٦ ش الشرقاوى ، أول طريق فيصل ــ الأهرام

قدر الغرف المقبضة

رواية

عبد الحكيم قاسم

ماتزال كلمات أبيه تعاوده بين آن وآن :

هذه الدار ريحها ثقيل ....

تعاوده هذه الكلمات فيتذكر دارهم فى القرية . كان بابها الكبير يفتح ناحية الشرق ، على الشارع الذى يدور بالناحية . وهو شارع نشط بالعابرين الغرباء . وعليه فان الباب اذا فتح فض ستر الدار . لذلك بقى فى غالب الأمر مغلقا ليحبس خلفه فى الباحة الصغيرة هواء ثقيلا .

وفى العصارى ـ حينما يخرج الناس الى الظلال المنكسرة أمام أبواب الدور ـ كان بابهم يظل مردودا ابتغاء الستر ـ وهذا الباب ، حتى لو فتح ، ما خلى الى وسط الدار نسمة عصرية . فهو مفتوح على الشرق . وهذه النسائم انما تأتى من الغرب ، أو من الجهة البحرية الغربية .

وعليه فانه فى هذه الأيام كان يرى أمه وأخواته وزوجة أبيه وزوجة أخيه دائرات فى الدار ، مخبوطات بالزمتة دائخات من الحر . تجلس من تجلس على عتبة أو تأوى الى غرفة لكنهن جميعا مخبوصات العيون كسيرات .

وكان « مسعد » الكلب الأسود الكبير يتمدد فى وسط الدار لاهثا متدلى اللسان سائل اللعاب ٠ واذا كانت الباحة ـ حيث الكانون ومسقاة الفراخ ـ عارية من السقف ، فان الشمس كانت مسلطة عليها ، وخشبات سياج السلم ـ الدائر حول هذه الباحة صاعدا الى السطح ـ تكاد تميل من وطأة الشمس ٠ والبطات الصغيرات والفرخات القليلات تتلمسن ظلا قليلا جنب الحيطان ٠ وبين آن وآخر تغرف واحدة الماء من المسقاة بمنقارها وتحمم نفسها ، ثم تسرع الى الظل ٠ ويحل الصمت ٠ تطرقن جميعا يائسات والحمامات فى البنانى مطلات على هذا الوجوم دون أن تبدر منهن نأمة ٠

وكان وهو طفل يخيفه ذلك الصمت فى تلك الأوقات ٠ صمت تعمقه قطرات الماء المتســاقطة من قن الزير الى الجرة ٠ يرى الرطوبة سارحة من هذا الركن المبلول جنب الباب الى الجدران ٠ رطوبة بنية ساخنة تكاد تطبق على أرواح الخلق والحيوانات ٠

أمه تحكى أن الجد غضب على الأب فأبعده بزوجاته وعياله من الدار الكبيرة الى هذه الدار ٠ وهو يحاول أن يصطاد ذكرى غائرة فى أعماق طفولته ، يرى نفسه فيها عابرا فى يد أمه من سطح الدار الكبيرة عبر سطح دوار الضيوف الى سطح الدار هذه ٠ يتذكر أن أمه ساعتها كان فى يدها متاع ، وأنه كان فى قلبـه احساس بأنهم لن يعودوا الى الدار الكبيرة مرة أخرى أبدا ، ويتذكر أن هذا الاحساس كان مفرحا ٠

ويتذكر أيضا عمتـه الكبرى فى دارهم هـذه تهيىء بنيـة للحمامات فى الجدار ، ثم تبيض وجه البنية بالجير ٠ ترجـع للوراء لترى عملها فرحة به ٠ تضحك للناس حولها فخورة بالدار تتمنى لو تبقى ، لكنها تجرى عائدة للدار الكبيرة التى ما عاد الأب ينتمى اليها ٠ لكنها فرحة صغيرة غائرة فى طفولته تموت تحت

وطأة هذا الصمت وحكايات الأم عن ابعاد الأب من الدار الكبيرة الى هذه الدار ٠

عبد العزيز كان يريد ألا تموت فرحته هذه الغـائرة فى طفولته ٠ كان يجرى الى الأب الجالس مع الرجال فى الدوار يريد أن يسمع منه عن دارهم شيئا ٠ لكن الأب اذا جاءت سيرة هذه الدار غام وجهه حتى يكاد يسود ثم يقول :

ــ هذه الدار ريحها ثقيل ٠٠ !

ويعود عبد العزيز فى كل مرة على عقبيه أسيفا ٠

واذا ما نزل على السلم ذى السياج الخشبى الى وسط الدار ــ لأن الشمس على السطح تكون قائمة متقدة حتى ما تدع شيئا يلقى جنبه ظلا ــ وجد وسط الدار كئيبا وصامتا ٠ صوت قطرات الماء من الزير يتتابع ساقطا فى الجرة ٠ أنفاس النائمين تتردد عميقة مذعورة ٠ كأنما شىء فاجع يوشك أن يقع ٠ يفتح عبد العزيز الباب الكبير ويخرج الى الشارع ثم يغلقه وراءه ٠

أبوه ينام القيلولة فى الدار ٠ يمشى بجوار الجدار شاردا ٠ أعلى من جـدار دارهم ٠ وهو الى ذلك ليس كمثله مـدهوكا بالطين ، بل بمونة الجير ومبيض بلون باهت شـوهته البقع والتراب حتى ما عاد من الممكن تحققه ٠ لكنه بالمقارنة بدارهم يملك تميزا وجلالا قديما ٠

يميل عبد العزيز الى اليسار الى الباحة التى تتقد فيهـا الشمس أمام شرفة الدوار ٠ من هنا تبدأ الحارة ٠ ثم تمضى تضيق وتنفرج ٠ ثم تتفرع الى فروع تدق وتتقارب فيها الحيطان حتى تنتمى الى أبواب غائرة مؤدية الى أجواف الدور ٠

العمودان الكبيران على جانبى شرفة الدوار الكبيرة ، السياج الخشبى الذى يحيط بالشرفة ثم ينزل مع درجات السلم العريض حتى أرض الشارع ، يصعد عبد العزيز هذه الدرجات ٠ على اليمين واليسار لصق الحائط دكة خشبية مفروشة بالحصير ٠ الشرفة فى الظهرية صامتة مقبضة ٠ وحصر الأرائك مع لمعان الشمس لا تخطىء العين عليها غشاوة رقيقة من تراب ، كئيبة ٠

هذا الدوار بناه الجد للضيوف ولاجتماع الرجال فى العصارى والأماسى وللاحتفالات ومجالس العزاء ٠ وهو بناء مرتبط فى نفس عبد العزيز بمشاعر غامضة ٠ يرى عليه سيماء عظمة أصيلة قديمة ، لكنها فى ذات الوقت بالية منقرضة ولا سبيل الى استنقاذها ٠ يرى ذلك فى الخشب الذى أصبح كالحا أجرب من تسليط الشمس عليه ، وقوائم السياج التى نخر بطونها السوس فهى مبقورة بلا رحمة ٠ يرى ذلك فى دعامتى السياج القائمتين عند آخر درجة من السلم فى الشارع ٠ ما تمر دابة الا وتحك جلدها فيهما حتى تتزعزعا وتبقيا مائلتين أبدأ حتى يأتى من يقيمهما ويدعمهما بالأوتاد وقطع الأحجار ٠ لكن أمر سقوطهما مرة أخرى يبقى أمرا محتوما ٠

الباب الذى فى الشرفة والمفضى الى الردهة الكبيرة كبير من خشب منحوتة عليه رسوم فروع مثمرة مورقة يبدو أنها كانت جميلة يوما ٠ لكن المطرقتان الحديد على المصراعين كسرت واحدة منهما ٠ ورغم الصدأ ترى الأخرى على هيئة يد رشيقة تمسك بكرة صغيرة تطرق بها على سندان لطيف ٠

القرابة وشيجة بين هذا الباب وقوائم السياج الهالكة ٠ وحدت تقلبات الأيام والبلى بينهما فى اللون والتهدم ٠ هما معا يصنعان اطارا مقبضا للجلسات التى يجتمع فيها الرجال هنا ، ويسودهم الحبور ٠ لا يغفل قلب عبد العزيز عن اطار الكآبة الذى

يصنعه هذا البلى ، مع أنه لم ير هذا البيت جديدا ، الا أن حقيقة أنه تآكل وتدهور ظلت ترسب فى نفسه مشاعر من اليأس بقيت مرتبطة بذلك المنزل الريفى القديم ٠

الردهة معتمة قليلا ٠ الباب فى آخرها من الخشب والزجاج الملون يخلق جوا حلميا ٠ أو هو جو كابوس ٠ فان سقف الردهة وأعالى الحيطان مسودة من كثرة ما توقد النار للاستدفاء فى أيام البرد ٠ السواد طمس الزخارف القديمة ، وما بقى منها يثير فى النفس الأسى ٠ هذا الى أن البياض سقط من مكان أو آخر ٠ رمم فى أحيان قليلة وفى غلظة ٠ الأرائك جنب الحائطين المتقابلين يسيطر عليها – فى هذا الوقت الظهرى – الصمت والعتامة ٠

شىء ما فى هذه الردهة يبرر ذلك الارتباط الحتمى بين الدوار واحتفالات العزاء ٠ الموت والبيوت الريفية القديمة وتلاوة القرآن فى الأماسى الكئيبة ٠ ارتباط يكمن فى كل مرة وراء هبوط العزم على تحويل الدوار الى بيت للسكن ، للأب أو لأحد الأعمام الآخرين الوارثين ٠ يبقى العزم نية مؤجلة ويبقى البيت كما كان عليه أيام الجد مكرسا للضيفان ومجالس الرجال وليالى العزاء والفــــرح ٠

الأب ينام القيلولة على أريكة فى غرفة الجلوس الكبيرة ٠ لقد رأى عبد العزيز طرفا من ماضى هذه الغرفة العتيد ٠ كانت على شبابيكها ستائر ثقيلة من المخمل الأحمر ٠ وعلى الحيطان كانت صــور للأعمام أيام الدراســـة فى الثياب الأفرنجية وعلى رؤوسهم الطرابيش ٠ وكان على أرض الغرفة بساط أحمر كاسيا ٠ وكانت الارائك وثيرة مكسوة ذات نمارق ومساند وحلى من أزرار خزفية بيضاء ٠

كانت الغرفة هكذا عجيبة ومهيبة ٠ ورغم أن عبد العزيز كان صغيرا الا أنه كان شديد الوعى بها ٠ كانت شيئا رائعا فى

قلب كل هذه الجلافة والكلاحة والتآكل . كان الجميع يسمونها « أودة الجلوس » وينطقون أسمها بنغمة خاصة ، مع أن كلمة أودة لا تطلق الا على الغرف فى بيوت البنادر . والفلاحون يسمون غرفهم منادر أو قاعات ـ ويستثنون هذه ويفردونها باسم خاص ولا يفتحونها الا لضيف عزيز .

واذا بالأعمام فى يوم ينزعون ستائر الشبابيك ولم يفهم عبد العزيز ولم يسأل ولم يقل لأحد أنه حزين . لقد لاحظ أن الجميع منطوون على حزن خاص رغم أنهم يغصون بالكلام بل وربما بالضحكات أيضا . ان ابتذال جلال الغرفة القديم وفضح عتامتها حتى يبين سقوط البياض من أماكن كثيرة من الجدران كان جرحا لا يمكن اخفاء ايلامه .

واحدة وراء الأخرى اختفت الصور التى كانت معلقة على الجدران . كبر أولاد الأعمام وأحب كل واحد أن تكون صورة تلمذة أبيه عندهم فى الدار . وواحد منهم عرف أن بساط الغرفة كان يخص أمه المتوفية فأخذه وباعه وبقى على الأرض واحد رقيق مهلهل تبدو من تحته ألواح أرضية الخشب المتعوجة . ثم أنه بعد هلاك كساء الأرائك الرائع اشتروا لها قماشا رخيصا ذا وردات كبيرة مبتذلة فى ألوان بنية وصفراء وخضراء تتخالط فى غباء .

انتهت الغرفة نهائيا وماتت . ذلك الجمال الذى كان فى قلب الجد وروحه وأراد أن يورثه لمن بعده كفر به وديس بدافع قدر الغباء والعجز . اطار الوردات الحمراوات فى ورق أخضر بديع الجمال لم يبق منه سوى كسر متناثرة يحاول عبد العزيز أن يجمعها معا ، ويكمل لنفسه الصورة وتكون فى نفسه راحة كتلك التى تصنعها فى روح الميت فرع جريد أخضر على قبر طينى تحت الشمس الحارقة .

قلب كل هذه الجلافة والكلاحة والتآكل • كان الجميع يسمونها « أودة الجلوس » وينطقون أسمها بنغمة خاصـــة ، مع أن كلمة أودة لا تطلق الا على الغرف فى بيوت البنادر • والفـــلاحون يسمون غرفهم منادر أو قاعات ـ ويستثنون هذه ويفردونها باسم خاص ولا يفتحونها الا لضيف عزيز •

واذا بالأعمام فى يوم ينزعون ستائر الشبابيك ولم يفهم عبد العزيز ولم يسأل ولم يقل لأحد أنه حزين • لقد لاحظ أن الجميع منطوون على حزن خاص رغم أنهم يغصـــون بالكلام بل وربما بالضحكات أيضا • ان ابتذال جلال الغرفة القديم وفضح عتامتها حتى يبين سقوط البياض من أماكن كثيرة من الجدران كان جرحا لا يمكن اخفاء ايلامه •

واحدة وراء الأخرى اختفت الصور التى كانت معلقة على الجدران • كبر أولاد الأعمام وأحب كل واحد أن تكون صـــورة تلمذة أبيه عندهم فى الدار • وواحد منهم عرف أن بساط الغرفة كان يخص أمه المتوفية فأخذه وباعه وبقى على الأرض واحد رقيق مهلهل تبدو من تحته ألواح أرضية الخشب المتعوجة • ثم أنه بعد هلاك كساء الأرائك الرائع اشتروا لها قماشا رخيصا ذا وردات كبيرة مبتذلة فى ألوان بنية وصفراء وخضراء تتخالط فى غباء •

انتهت الغرفة نهائيا وماتت • ذلك الجمال الذى كان فى قلب الجد وروحه وأراد أن يورثه لمن بعده كفر به وديس بدافع قدر الغباء والعجز • اطار الوردات الحمراوات فى ورق أخضر بديع الجمال لم يبق منه سوى كســـر متناثرة يحاول عبد العزيز أن يجمعها معا ، ويكمل لنفسه الصورة وتكون فى نفسه راحة كتلك التى تصنعها فى روح الميت فرع جريد أخضر على قبر طينى تحت الشمس الحارقة •

رسوم ليلة الزفاف . عربة فيها العروس مزينة وتجرها جياد أصيلة والناس يحتفلون ويغنون .

كان عبد العزيز يحب هذه الدار كثيرا ويحب أن يصحب أباه كلما زارها . لكن الأمر كان على ما يبدو غـير خال من المشاكل . وأن الناس كانوا دائبين على لوك سيرته مع صاحبة الدار . يقولون تزوجها سـرا بعد موت زوجها صـاحبه . ويقولون غير ذلك كثيرا أدى بالأب الى كف نفسه وان لم يؤت القدرة على كفكفة الشوق الذى ظل دائما ناطقا فى عينيه .

فى المسـاء يجلس الأب على الأريكة فى ردهة الدوار . السقف المسور والجدران الكالحة اطار كئيب لجلسة ولأحاديث بضعة الرجـال المتناثرين على الأريكتين ، حتى يكون تأخير الرواح غير مجد فيقومون . يحمـل الأب المصباح فى يده ، يمشون عبر باب الردهة فى طرقة مظلمة يأتون الدار من خلفها حيث زريبة البهائم المعروشة بحطب الذرة تتدلى أوراقه الطويلة فتكون ظلالا وأوهاما مخيفة .

يلقون نظرة على البهائم القابعة فى هذه الظلمة ثم يدلفون الى وسط الدار . حول الردهة ثلاث غرف . الأخ وزوجته على اليمين . على اليسار غرفة زوجة الأب وعيالها بعدها غرفة أم عبد العزيز . وكأنما احن الشجار الذى يدور طول اليوم فى حقد وغل بين الجميع لا يزال متجسدا فى الأشباح والتهاويل التى تصنعها كتل العتمة وشرائح النور .

الفرن يغطى ثلثى مساحة الغرفة التى ينـام فيهـا أخـوه عبد العزيز وأمه . الثلث الباقى فيه مصطبة ينزل الواحد عنها الى أمام الفرن . حيث فتحـة المحمـاة والحنيـة ، وحيث باب الغرفة . ظهر الفرن مفروش بحصـير مصـفوف عليه النائمون

واحد جنب الآخر · ينتهى الصف بالأب جنب الحائط والى جواره عبد العزيز · يغمض عينيه متفكرا · فى الحائط رف طينى عليه مصباح خفيض الضوء وفى قاع الغرفة اناء البول · والا خرج الواحد الى المرحاض المظلم تحت السلم الصاعد الى السطوح ·

وكان يحدث فى الصباح أن يكلف عبد العزيز أبوه أن يدعو اليه عم ابراهيم الرجل العجوز الطيب الذى كان يعمل لهم بالأجرة احيانا · تبدأ الرحلة الى الحارة · من الحارة يلج الدار عبر باب كبير قديم الطراز مفتوح ومركون مصـــراعه على الحائط · ثم يواصل سيره موغلا مخترقا فناء الدار الاولى ثم الدار الثانية حتى الخامسة الكائنة فى قـــاع هذا الجب المؤلف من ردهـات هذه الدور واحدة بعد الأخرى · سكة تتلوى وتضيق وتتسع وتعلو وتهبط حتى يجد فى نهايتها الدار التى يقصـــدها واقعة فى آخر سلسلة من الدور تفضى كل واحدة منها الى الأخرى مثل الحبات فى عقد طويل ·

من سكته تجمـع النساء اليهن أرجلهن الممدودة ويغطينها بفضل الجلاليب ويرددن التحية فى قنوط · والعيال ينظرون اليه مكسين عدوانيين · الحمير والبقرات والجمال يحدقن فى غباء · الروائح النتنة والذباب وذوائب الحطب المتهرئة المتربة المتدلية من السقوف · وهو فى سكته الى عم ابراهيم · كم كدح عقله ليفهم سر هذه الدور فلم يفتح الله عليه بشىء ·

انما كان يفجع قلبه أن يسمع فجأة فى عز القيلولة صراخ النساء · يتلفت حواليه مستفهما فتجاوبه أصوات مكدودة تسمى أهل الدار الذين يتعاركون · ويهرع أهل المـــروءة للحيلولة بين الناس والوقوع فى المحذور · ثم يأتى المتعاركون وحولهم لمة من الخلق الى أبيه فى شرفة الدوار ·

يعلو الزعيق والصـــراخ ويتكلم الناس جميعا فى آن ٠ الكلمات ملتهبة غاضبة لكنها متشابهة متكررة وهى دائرة دائما حول المخرج والمطل ووسط الدار ومكان البهيمة والمنفذ والمستراح وغير ذلك من تعبيرات تتردد بالحاف ويأس واصرار على أن يقوم الشيخ الى المحل بنفسه وأن يرى كيف استشكل الأمر واستحال عيش الناس معا وما السبيل الى فض النزاع ٠

فقد كان أبو عبد العزيز مشهورا بأنه خير من يقسم الدور بين أصحابها الضائقين بها٠ وكان عبد العزيز يسمع عن رحلات للأب فى الحـــارات الضـــيقة ، وعن جهوده فى حل اشـــكالات المساحات القليلة والجدران المتهدمة ٠ يزيل بعضها ويقيم غيرها فى محاولة لايجاد المخارج وتخليق المطلات وركن البهيمة وزاوية المستراح ٠ وأن يفسح للناس ما أمكن فى وسط الدار والمصطبة وركن الزير ٠

وفى مجالس الرجال فى العصارى كانت المناقشات تحتدم حول هذه الدور وعما هو كائن وعما ينبغى أن يكون ٠ وكان الأب أرفع المتكلمين صوتا وأوضحهم اقتراحا ٠ لكن الصمت يكون فى نهاية الأمر استسلاما ولا يكون رضا واقرارا ٠ والاختناق عميق فى كل نفس تراه فى عينى كل رجل حينما يكون عليه فى نهاية الأمر أن يئوب ٠

فالبلد متكومة مكبوسة تلتبك فى بعضـــها الدور والحارات كما تلتبك شلة الخيوط ٠ وعبد العزيز يمشى فى ســـكك طويلة متعرجة تعلو وتهبط وتضيق حتى تختنق الى أن تؤدى فى نهاية الأمر الى دور غامضة عميقة يخرج منها أهلها كأنهم فارين الى الخلاء حيث يجتمعون على رؤوس الحارات ويحكون ٠

وكان عبد العزيز لما يئس من استكناه لغز هذه البلد أرجعه الى ارتباك مقصود أو موهوم مصـــنوع من جدران قديمة بالية

واقفة لا تريم والناس حولها تتعارك وتتقاتل فى غل واحن · هذا هو الامر والا فكيف تسنى لأحد أصحاب أبيه ، كان يقيم فى حارة الزعايرة حيث الفقراء والشغيلة ومستحقى الزكاة ، أن يصبح عليه الصباح فاذا هو ساكن فى حارتهم · وهو فى سبيل ذلك لم يتكلف سوى سد الباب القديم وأن ينقب بابا جديدا فى الحارة الأخرى ·

اذن فهذه الدور القديمة البالية الصغيرة تقف فى أماكنها هذه خالقة للناس ضيقا وعنتا فى حياتهم ، ولو أنها تحركت فى محالها مديرة ظهرها أو وجهها فربما مقادير كثيرة تتغير وتتبدل · يتأمل عبد العزيز كومة الدور من موقفه على سطح دارهم محاولا اختبار صدق خواطره هذه · لكن هذه الكومة من الدور مغطاة تماما بحزم حطب الذرة وأقراص الروث المجففة للوقود حتى ما يستطاع تأمل سر تكوينها ·

فهل يكون ثمة يوم يجتمع فيه الخلق قلبا واحدا ونظرا واحدا ويدا واحدة ينحون ركام الحطب عن السقوف ، ثم يزيلون السقوف عن الجدران ، ثم يتدبرون · أى تيه من الخوف والجمود والبلادة ترسمه هذا الجدران على الأرض متعوجا متداخلا حاصرا الفكر والروح ، ضاغطا على القلوب تعفن فى حبس الدور القبض وتنتن بالحقد والنزاع ·

لكنها دائرة الخوف المقفلة التى لا خروج منها · الدور تبنى لصق الدور · تنمو القرية بالتراكم · بتزاحم السعى نحو القلب ودفن الرأس والوجه فى الكتلة الأم حتى يكون المسرب بين دارين صدفة أو خلسة ، ويكون المخرج مغامرة والمطل فضيحة ·· والناس تبقى فى هذه الجحور تأكل بعضها حتى تولد الشجاعة فى قلب رجل مقتدر فيخرج · يبنى الرجل لنفسه دارا نافرة عن جماعة الدور · أو يحلم بواحدة يزوج فيها أبنه البكرى ·

هذا ما فعله صاحب الأب الحاج صقر شيخ البلد . وكانت داره من الأعاجيب التى لا يبلى فعلها المدهش فى نفس عبد العزيز تقع فى حارة تنحدر متسللة من جنب المسجد . يسلم عبد العزيز لها نفسه فتأخذه يمينا وشمالا وعلوا وسفلا حتى تؤدى به الى باب الدار كفوهة المغارة . يسقط الواحد فيه فاذا به فى وسط الدار الشديد العتامة مع أنه غير معروش . الأمر أن الدار قائمة حول جميزة عتيقة لا يعرف أحد من زرعها . يســميها الناس جميزة صقر ويذكرونها فى سياق المسلمات الأزلية . وهى شجرة هائلة الجذع تمتد فروعها فى كل اتجاه حتى تظلل عشر دور حول دار صقر . وهى مأوى طيور مالك الحزين . تنحدر اليها أسرابه عند الغروب سحبا بيضاء توشك أن تسد عين الشمس . ويظل قراقها بطانة لكل ضجة أخرى حتى يهبط الليل وتركن الى الســـكون .

ردهة الدار حول جذع الشجرة مفروشــة بزرق الطير . والجذع مركون عليه المحاريث وأجـزاء النورج . مدقوقة فيه ألوان المسامير ومعلقة فيه الفئوس والمناجل والحبال ، بل وحتى الجرات التى تســكنها أزواج الحمام .. وحول الردهة الغرف المظلمة من داخلهـــا والتى لا تغلق أبوابها أبدا. وفى أعالى الجـدران بنانى الحمام بلا نهاية . وفى الركن فجوة هائلة فى جدار مؤدية الى زريبة البهائم .

الدار تموج بالخلق من حمام وفراخ وبط ومعيز وبشر . والدار تموج بحركة لا تهدأ وزعيق لا يكف . يقف عبد العزيز فى باحة الدار مذهولا . زير الماء مغروس فى الأرض جنب جـذع الشجرة . الى جواره جرة أخرى هائلة الحجم يحكى عنها شيخ البلد أنه يلقى فيها كل عام ملء شوال من الملح السلطانى . ويلقى فيها أيضا سقط القثاء والخيار وصغار البطيخ والبصل وكل ما يتبقى بعد بيع خير المحصول فى السوق . يلقى هذا كله فى الجرة

يدور عليه الوقت والملح فيكون مخـــللا طيبا فيما يحكى الحاج صـــقر ٠

هذان الاناءان الفخـــاريان الهائلان هما القطب والمدار ٠ مشنة العيش بعد ذلك فى قعر احدى الغرف ٠ الكبـار يقضـون حاجتهم فى المسجد ٠ العيال والنساء فى زريبة البهائم أو حيثما اتفق ٠ وعبد العزيز واقف فى وسط الباحة ذاهلا ٠ فثمة فيض من زحم حياة يتفجر هنا من منابع لا ترى لكنه عارم وغامر ٠

وشيخ البلد كان يحكى عن دارهم ضاحكا ٠ لكن أحدا ما كان يخطىء النبرة الحلمية فى صوته عندما تأتى سـيرة الدار الجديدة ٠ وكان قد بناها خارج كتلة دور القرية عند أول الزمام ٠ وبنى لها شرفة حجرية ذات عمودين ضخمين ٠ لكنها كانت بعد لم تتم بناء ٠ بابها أغلق بألواح خشب ومسامير وبنى فراغ فتحات النوافذ بالطوب ومن داخلها كانت تسكنها الخفافيش والفئران ٠ لكن شيخ البلد كان يحلم بأن تتم يوما ما بناء ويتزوج فيها ابنه البكرى الذى يتعلم فى الأزهر ٠

الأب يقول :

– الناس هى الناس على كل حال ٠٠٠ لكنها العتبات ٠٠ !

وهو بذلك يفسر أختلاف قسمة الحظوظ بين الخلق ٠ السر كائن فى الدار ٠ وعلى ذلك فقد قر فى نفس عبد العـــزيز أن دارهم منحوسة العتبة ٠ وأنها هكذا تحبس حظوظهم فى جوها المكتوم خلف جدرانها الصاهدة الرطبة ٠ وأنه لا أمل الا بالخروج ٠ لكن الى أين والاحوال تسوء من يوم الى يوم ٠

والأب يقول انه لا حيلة وان الدنيا لو أقبلت لباض الحمام على الوتد حتى لو لم توجد له البنيـــة ، والدنيا لو أدبرت فلن

يحوشها حول ولا تدبير . وبهذا كان اليأس يزحم نفس عبد العزيز أسود قاتما وهو ينزل السلم الى وسط الدار ويرى العراك . ويعرف أن الأب لا يستطيع أن يبنى للأخ دارا .

ومن ثم فقد خرج الأخ الأكبر من الدار بزوجته الى غرفة علوية على سطوح بيت الأعمام . تقف بمفردها تحت الشمس . وضع الأخ فيها سريره ودولابه . وتحت هذا السرير يوجد متاعهم القليل ، مشنة العيش وجرة الجبن . وكان عبد العزيز يطوف حول باب الغرفة يدفعه الفضول ليرى كيف يعيشون ، لكنه كانت تذبه عنهم نظرات أخيه الباردة الخالية من الترحيب .

واذا كان عبد العزيز قد كبر وراهق فان جسده وروحه قد تمردا على الغرفة التى ينامون فيها جميعا وأراد أن يستقل بغرفة . تلك الغرفة الوحيدة على سطح دارهم الواقفة هناك تحت شمس الظهر عكف عبد العزيز عليها كنسها ونظف أمامها . تدبر لنفسه سريرا صدئا وطاولة للكتابة وكرسى حملهم الى غرفته هذه .

واذا أغلق الغرفة على نفسه للمرة الاولى فانه أحس براحة عميقة . رقد على ظهره فى سريره . العمدان نحيلة طويلة صدئة . السقف من عروق من الخشب نخرها السوس ومن كسر من ألواح خشبية ألقيت حيثما اتفق . الجدران مدهوكة بالطين تنفر فيه عروق التبن . مصاريع الشبابيك النحيلة الجرباء متغلقة تنفذ منها مستطيلات متوهجة من الشمس على الارض وعلى الجدران . من الأرض يهب التراب بعد أن يجف بسرعة ما رشه على الارض من ماء . ومن وسادة رأسه ، من فرش السرير كله تحرق آنفه رائحة تراب لا سبيل الى التخلص منها . يغمض عينيه وهو راقد على ظهره يائسا . البراغيث تزحف على جسمه تحت ثوبه لا يمد يده لابعادها كأنه جثة هالكة ينهش فيها الدود .

الناس فى الباحة على رأس الحارة يحكون عن البراغيث وعن البق ٠ لا جدوى ٠ يحاربونها بالكيماويات الخاصة بآفات الزرع ٠ تختفى آنا ثم تعود ٠ يأتى بين الآن رجل من عرض الدنيا فى خرجه زجاجات يزعم أنها تبيد البراغيث والبق والناس تشترى وتجرب وقد يرتاحون وقتا ما لكن الحشـــرة العنيـــدة تعود ٠ ويقولون ربما هى عذاب الله للناس بما تقدم أيديهم وعلى الناس أن ترضى ٠ واذا ما أرادوا اعداد غرفة لاجتماع عزاء أو فرح جمعوا العيال وأغروهم بحبات الـــكراملة يبذرونها على أرض الغرفة والعيال تتزاحم وتتصارع يلقون بأنفهم على هذه الحبات فى الأرض ويتمرغون لاستخلاصها من التراب بينما يجمعون فى ثيابهم وأجسامهم براغيث الغرفة ٠ ويضحك الناس على الحكاية التى تتكرر كل مرة ولا سبيل غيرها لتنظيف الغرفة للعــزاء أو الفرح ٠ يضـــحكون ويدرك عبد العزيز المرارة فى الــكلمات والوجيعة الملازمة التى لا برء منها ٠

تكون راحة اذا ما صحب أباه فى زيارة عم محمد أفندى زوج صغرى العمات ٠ كان موظفا فى المدينة ثم أصيب بالشلل فعاد ، أقام فى القرية ٠ اتخذ لنفسه دارا صغيرة فى أعماق الحارة ٠ دار صغيرة حتى ان الباحة وراء الباب تضيق بزير الماء ٠ لكن الرجل نزع الباب العتيق وجعل للدار بابا حديثا ذا مصراعين ٠ اذا ما دخلت وجدت الباحة مبلطة والزير منصوبا على حامل من الزنك له صنبور تحتــه طست ، الى جواره فى الحائط دق مسمار علق فيه وعاء صغير فيه صـــابونة يعلوه مسمار آخر فيه منشفة للايدى ٠

وعلى اليسار غرفة كبيرة تفتح فى غرفة أخرى أصـــغر قليلا ٠ جدران الغرفة الكبيرة مبيضة وأرضـــها مبلطة وعلى الجدران علقت بعض صور ، كذلك مرآة ٠ وثمة أريكتان جنب

الحائطين كذلك دولاب ملابس حتى أصبحت الغرفة لطيفة محببة .

فاذا ما خرج الواحد الى الردهة مرة أخرى وجد فيها بابا داخليا يؤدى الى باحة شديدة الصغر فيها فرن وكانون ومرحاض مظلم . وفيها سلم طينى يصعد دون سياج الى السطوح حيث توجد مرة أخرى غرفتان واحدة داخل الأخرى فيهما أسرة لطيفة للنوم وأمامهما باحة مسقوفة أزال الرجل الجدار الذى على الشارع وأقام مكانه سياجا خشبيا فكانت شرفة لطيفة .

كان عبد العزيز يحب هذه الدار ويأنس بالجلسة فى هذه الشرفة البحرية . ويجد فى الساعات القليلات فيها راحة لنفسه من القهر الذى تمارسه الجدران عليه حيثما ذهب . وان لم يكن فقد كان عبد العزيز يزور صحابه ، تلامذة المدارس مثله . كان أقربهم الى قلبه الولد سيد . كانت له غرفة على سطوح دارهم ، لكنها كانت ذات نافذة صغيرة فهى قليلة الضوء . كذلك فان الباحة أمامها كانت مسقوفة فلم تكن الشمس تتسلط عليها مثل غرفة عبد العزيز . ولم يكن فى غرفة سيد سوى حصير وغطاء من صوف الغنم ووسادة . لكنه كان يجهد لتزويق غرفته بضروب من صور يشتريها من السوق أو يقطعها من المجلات . فكان عبد العزيز يرى صورة يوسف وهبى وأسمهان الى جوار صورة سيدنا على ابن أبى طالب والى جانبه من يمين وشمال الحسن والحسين . واذا كان ثمة مرآة فان الغرفة كانت تشبه دكان الحلاق .

وكان سيد يجتهد فى العناية باصص الزرع عنده . يزرع أعواد الريحان وزهور البسلة والخبيزى وغير ذلك ولا يكاد يبارح غرفته الى الشارع الا نادرا . يذهب عبد العزيز اليه يقضى عنده وقتا طويلا حتى يدركه الملل فيئوب .

يئوب عبد العزيز الى غرفته • يتمدد على ظهره فى سريره ويحلم بأن يكون له دار لوحده • يجمع فى هذه الدار كل ما رآه حسنا فى كل دار رآها • يفصل حلمه تفصيلا حتى ما يغفل عن صغيرة أو كبيرة حتى يكون له النهاية دار ظليلة نظيفة تطل على الجهة البحرية • تخلى النسائم الى داخلها نوافذ مفتوحة • وربما هفهفت ستائر من الخرمات على الشبابيك • يأتى الناس لزيارة صاحب الدار • يصعدون للشرفة سلمات قليلا ••

لكنه يصحو من حلمه على عراك النسوان تحت فى وسط الدار • تملأ أصواتهن الحقودة المغلولة قلبه قهرا وكآبة • يمتلىء قلبه لهن كراهية ومنهن اشمئزازا • ثم تتحول مشاعره العدائية الى الدار • فهى اذ تكبس على أرواح الناس بالصهد والكتمة يتحولون الى وحوش تخمش بعضها بعضا حتى تدمى • لكنهن فى الساعات القليلات التى يجدن فيها خلوا وراحة يكن قريرات لطيفات •

تحكى زوجة الأب عن دار أهلها فى القرية البعيدة • وأنها كالقصر مبيضة الحيطان مبلطة الأرض • وأن فيها ستائر وأرائك وأن المصابيح الكبيرة معلقة من سقوف مطلية • وأنه على الجدران صور • وأنه ثمة شرفات بحرية حيث يحلو الجلوس فى العصارى للحديث والمسامرة •

وهو قد ذهب مع أمه مرات كثيرة الى دار جده الذى يعمل فى قرية بعيدة • ويقيمون فى بيت أنيق أبيض له حديقة فيها شجرات جوافة • بل ان الماء يسيل فيه من صنابير موصولة بأنابيب آتية من صهريج كبير على سطح البيت يملأ بادارة مضخة كبيرة قائمة فى الحديقة •

لكن عبد العزيز يتذكر أن جده كان يستأجر هذا البيت ولا يملكه • وعليه فان صاحب البيت كان يملك شجرات الجوافة •

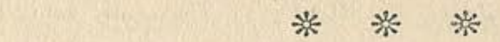
يأتى عماله كل آن ليجمعوا الثمرات وأهل البيت ينظرون . ثم ان الرجل يخزن تبن بهائمه فى غرفة فى الحديقة . فاذا كان عبدالعزيز وخالته الصغيرة قد عكفا يسقطان الثمرات من الشجرات بقذف الاحجار أو بخبط الفروع بالعصوات الطوال فانهما كانا يرمقان الباب دائما . حتى اذا ما رأيا أن عمال صاحب البيت قد أتوا يأخذون التبن من الغرفة فرا عائدين مذعورين .

يقوم عبد العزيز من سريره . كل الاحلام والرؤى تنتهى دائما الى خاتمة حزينة . اذا ما فتح الباب عشيت عيناه من وقدة الشمس المنصوبة أمام باب الغرفة . ينزل السلم الى وسط الدار . يغمض عينيه لا يريد أن يرى شيئا . لا يريد أن يلحقه شيء من ذلك الاحن المتفجر فى جو وسط الدار . يريد لروحه صفاء وطمأنينة يحلم بهما . يأخذ طريقه الى المسجد . تنزل عليه سكينة العتامة والجو الرطب وجلال الأعمدة الاربع الضخام والمنبر الكبير . الطيقان فى أعالى الجدران تخلى الى جوف المسجد الضوء القليل والهواء وتحجب عنه بهر الشمس وسفو التراب .

وبعد أن اعتاد التردد على المسجد عرف أن الناس لا يسعها أن تبقى دائما قائمة معتدلة ولا ملتزمة الكلام الصالح . وأنهم بعد انتهاء الصلاة كثيرا ما يتمددون على الحصر النظاف .. وأنهم يتخففون فى القول والسلوك . بل أنهم يوغلون فى النميمة والجدل ويكونون جارحين ممرورين . بل قد يكونوا أيضا حيوانيين مخيفين . عند ذلك تكون هذه العتامة أشبه ما تكون بعتامة كهف تتراقص فى داخله أشباح الضعف الانسانى والغرائز الدنيا طليقة بلا حياء .

بل انه عرف أيضا الميضاة والمراحيض والحمات . ملأه اشمئزازا ما يسود المترددين عليها من مزاج طلق أحيانا ، حتى

ليتبادلون فيه عن أنفسهم وعن بعضهم التعليقات المخزية · ثم ان رائحة المراحيض وما يصدر عن الجالسين فيها لقضاء حاجتهم من أصوات وتوجعات كانت تقلب معدته قرفا · بل أنه عرف أن جو المسجد بعامة تشـــوبه روح داعرة حتى ان كبار العيال يلوطون بصغارهم فى الجوانب المكفوفة عن العيون · ان التدين والفسق يختلطان هنا بطريقة محيرة · قل تردده على المسجد رويدا ·· الانسان يحتاج فى الحقيقة الى بيت ·



لايزال عبد العزيز يتذكر انتقال أسرة جده الى ميت غمر . ومع أنه كان لايزال صغيرا الا أنه لم ينس انقباض قلبه حينما رأى البيت الذى سوف تسكنه أسرة الجد فى المدينة . كان قميئا وزريا . تمنى لو أنهم بقوا فى القرية فى المنزل الأبيض ذى الحديقة .

بدأوا يحملون قطع الأثاث يصعدون بها سلما خشبيا ضيقا الى أعلى حيث ردهة بالغة الصغر مفتوحة عليها كل الغرف والمطبخ والمرحاض . كانت الغرف صغيرة بكل واحدة شباك عال مربع . وضع سرير الجد فى غرفة والدولاب الكبير فى غرفة أخرى . ولما كان المطبخ صغيرا جدا فقد كانت الجدة تفرش حصيرا فى الردهة الصغيرة وتجلس أمام المطبخ بين الغرف لتطبخ - وعليه فقد كانت الغرف كلها تملأها رائحة الطبيخ . وكان عبد العزيز ضائقا بالشبابيك العالية التى لا يستطيع أن يطل منها على الشارع كما أنه كان ضائقا بالباب الذى يرسلونه يفتحه لكل طارق فيجرى طول النهار طالعا نازلا على السلم الخشبى الضيق . كره عبد العزيز هذا البيت حتى أنه لما حدثت غارة أثناء الحرب العالمية الاخيرة وخرج الناس جميعا الى الشارع خوفا من

القنابل كان فى حضن جدته يحلم بأن ينهدم البيت ولا يعودون له أبدا ٠

وقد نقلوا منه الى بيت فى عزبة غالى أيضا ٠ كان بيتا صغيرا من طابق واحد ٠ لم تكن له حديقة انما ممشى صغير عار فى الباب المؤدى الى الشارع ٠ فى هذا الممشى العارى كانت شمس الظهر تتوهج على البلاطات ٠ كذلك كانت الشمس تسخن على السقف الاسمنتى ٠ وتقف الجدة فى المطبخ الصغير طول النهار أمام مواقد الكيروسين ، الجدران تنضح صهدا ومربع الشمس من النافذة مسلط على الأرض لا يتحول ٠

فى الشتاء كانت بقع الماء تنتشر وتكبر من المطر فى السقف وعلى الجدران ٠ ومع دخول الماء يوقدون مواقد الكيروسين ويتحلقون حولها فى الغرف ٠ يتكلمون زعيقا حتى يغلبون وش هذه المواقد الذى ينقطع ٠ كل قد جمع فوق ظهره ما أتيح له من المزق فاذا ما آن أوان النوم دلفوا الى تحت الأغطية يرتجفون ٠

كذلك كان الخروج من البيت تجربة تحكى ٠ فأهل عزبة غالى مشهورون بأنهم لا يكفون عن العراك ٠ وأن من طبائعهم العدوانية والشراسة ٠ وعلى ذلك فقد كان على واحد من الكبار أن يصحب الخالة للمدرسة فى الذهاب والاياب خوفا من مشاكسة العيال ٠ فاذا عادت فلا تخرج الا لضرورة ومع أحد من الكبار ٠

لكن عبد العزيز بالرغم من ذلك بدأ يتعرف على ما حول البيت ٠ وفى جولاته اكتشف أبنية صغيرة لطيفة ، عرف أنها مخابىء يلجأ الناس لها وقت الغارات احتماء من القنابل ٠ وهى عبارة عن أقبية طويلة واطئة داخلها رطب معتم قليلا لكنه متجدد الهواء ٠ وهى مبلطة الأرضية وبها شبابيك صغيرة لطيفة ٠ وقد

وجد عبد العزيز أن عيال العزبة يبقون فيها طول النهار مكنونين عن وهج الشمس فى الخارج ٠ وأنهم فيها يلعبون ما شاء لهم اللعب ٠ وأن من هذه اللعبات ما هو مثير يقام فيه الفرح وتزوق العروسة ويجلس الى جانبها العريس ، ويكون غناء وهيصة ٠

ولقد حلم عبد العزيز أن يكون له مخبأ كهذا يخصه وحده وأن فى قلبه الى الآن مسة الطراوة الرقيقة فى البناء المقبى ٠٠ وما مر على هذه المخابىء الا وتذكرها ٠ وأنها لتتغير مع الأيام وتتوسخ وتتهدم ثم تصير مقالب للزبالة ولجثث الكلاب الميتة ٠ ثم ما يعود عبد العزيز ينظر حتى تتغير مشاهد الأشياء ويعفى على رسومها الوقت ٠

كان الجد معنيا بأن يجد بيتا كبيرا يقيم فيه فرح ابنه الخال الاكبر ٠ ولقد استأجروا منزلا مهولا كان فى زمانه مكتبا للبريد ٠ كانت ردهته شاسعة تطل عليها شبابيك صغيرة عليها قضبان فيها طيقان وعتبات من الرخام ٠ أما الغرف فكانت شاسعة ذات نوافذ هائلة ، وسقوفها شاهقة متربة ، تنصب خيامها فيها العناكب فى مأمن لا تطوله يد التنظيف ٠

كانت السكنى فى هذا البيت تثير العجب والضحك ٠ كما كانت تثير الخوف أحيانا من تلك الزوايا البعيدة المعتمة الرطبة ٠ لكنهم على أى حال بعد الفرح تركوا البيت وسافر الخال بعروسه الى حيث يعمل ٠

أخيرا استقرت أسرة الجد نهائيا فى بيت جديد ٠ ومعهم استقر فى هذا البيت أيضا عبد العزيز حيث التحق بالمدرسة الابتدائية فى ميت غمر ٠ وهو لايزال يذكر غرفة الجلوس فى ذلك البيت حيث نظر حواليه وتحقق أنه ليس هنا لزيارة يقطعها ويئوب حينما يشاء ، بل ليبقى ويتعلم ٠ فى ذلك المساء انقبض قلبه وطفق يقلب البصر فيما حوله شاردا مقهورا ٠

كان الضوء فى غرفة الجلوس هذه باهرا من مصباح كهربائى عار يتدلى من السقف من سلك عليه ، بطوله ، ذبابات متراصة • وكانت الجدران عارية ناصعة البياض تعشى العين من انعكاس الضوء عليها • والى جوار الحيطان كان ثمة ثلاث كنبات عربية مكسوة بالقماش الأبيض المغسول تقسمها من أوساطها النمارق • وعلى الأرض بساط من الصوف البلدى تتقسمه مربعات ومثلثات بنية وبيضاء •

فى مثل هذه الأماسى كان الجد والجدة يجلسان على الأريكة تفصلهما غرفة ويسودهما الصمت وخلفهما الشباك المفتوح على الحديقة الغامضة فى المساء وعلى عتبته القلة المبلولة الجسم • والى يسارهما الباب المؤدى الى الشرفة المطلة على الحديقة والمؤدية الى باب الشارع • كان بابا له شراعة من الزجاج وله مزلاج محكم •

على يمين عبد العزيز الجالس قبالة الجد والجدة كان ثمة باب آخر للغرفة يؤدى الى الردهة وخلفه آخر يؤدى الى غرفة أخرى داخلية • وعلى شماله شباك للغرفة يطل على الباحة التى يربى الجار الخواجه فيها خنازيره •

كان ضوء هذه الغرفة الباهر وجدرانها البيضاء العارية تثقل على وجدان عبد العزيز • يتمنى لو يتسلل الى تلك العتامة والغموض المحيط بالغرفة من جهاتها الأربع فى الجنينة أو باحة الخنازير أو الردهة أو الغرفة الداخلية • لكنه يحس أنه محاصر بهذا الضوء الذى لاظلال له • ويتصور أن هذاالبهر الأبيض يكشف حتى حناياه من داخله وحتى أكثر خواطره ايغالا فى الغموض • يتلفت حواليه لا تستريح عيناه على شىء •

يقومون • واذا أطفى النور ماتت الغرفة • يدوم لبضعة ثوان ظلام حالك • ثم يشعشع خلف شيش النافدتين المغلقتين

ضوء باهت مبهم حلمي • الردهة كبيرة عارية تماما • فيها مصباح شاحب الضوء يتدلى من سلك هو الآخر بطوله عليه ذبابات متراصة • يمضى الجدان متمهلان ، خيالهما على الأرض فى جو الصالة الفارغ الشاحب • يمضيان عبر باب زجاجى • سوف ينحرفان يسارا بعده الى غرفتهما • يدخل عبد العزيز الى الغرفة المقابلة لغرفة الجلوس من بابها على الصالة •

ليس بالغرفة شىء على الاطلاق سوى طاولة للكتابة تخص الخال الأصغر • وهى مركونة الى الحائط واليها يوضع كرسى • فى الركن الآخر حصير ملفوف ومسنود الى الحائط والى جواره كرسى وضع عليها فرش النوم • هذا الفرش يتألف من مرتبة لشخص واحد ولحاف يخصان الخال • ثم لحاف يخص الخالة الصغرى ولحاف يخص عبد العزيز وبعد هذامخدة رأس لكل واحد •

فرش عبد العزيز الحصير • المرتبة تأتى جنب الحائط للخال • جنبه يفرش لحاف الخالة وأخيرا يطوى عبد العزيز لحافه نصفين يفترش نصفا ويلتحف بالنصف الآخر • كان عبد العزيز قد أبدى رغبته أن يكون لحافه جنب الحائط مباشرة أو فى الوسط لكن الخال والخالة أصرا كل على موقعه من الحصيرة فلم يعد عبد العزيز للمحاولة مرة أخرى •

ينام على ظهره متفكرا • أطفىء النور والغرفة يشع فيها ضوء قليل من شيش النافذة على الشارع والنافذة على الجنينة • الجدران عارية ومبهمة ومعتمة • حينما تأتى الخالة الكبرى وزوجها وأولادهما ازيارة الجد فانها تأخذ مرتبة من سريره تفرشها فى الركن ، عندئذ قد يتاح لعبد العزيز أن ينام فى الوسط • لكنه فى نومه هذا على طرف الحصير يتدحرج ويبقى الليل بطوله عريانا على خشب الأرضية •

الخالة والجدة تقفان أحيانا فى المســـاء حينما تكونان ــ وحيدتـــان فى البيت خلف هــذه النافذة المغلقـــة على الشــارع وتسترقان السمع على مذياع الجيران • الخالة تكون ملهوفة جدا الا يؤرق سماعها مرور حنطور أو عربة نقل ، وتكتب نص الأغنية بالقلم الرصاص على بياض الحائط الأخضـــر المبقع • هذا الى رسومات أخرى صنعها عبد العزيز أو حفر صغيرة من دق مسامير أو غيرها يراها الآن وهو نائم مهولة بالعتامة •

فى الصباح يقوم من نومه يتلفت حواليه بحثا عن قبقابه • الأرضية من ألواح الخشب بلى دهانها من وطء الاقدام • يخرج الى الصالة ، قبقابه يجلجل فى فراغها • يعبر بابها الزجاجى الى ردهة طويلة • على يساره غرفة الجد وعلى يمينه تمضى الطرقة الى الحمام ثم الى المطبخ فى آخرها •

بعد أن يغتسل يعود فى الطرقة الى غرفة الجد • السرير ذو العمدان الأربع السود القائم فى الركن وفى مقابله الدولاب الكبير ذو المرآة وبينهما شباك فى الجدار • الأرض فى هذه المســـافة تحلت الطلاء عن خشبها الاقدام • يأخذ عبد العزيز ســـرواله وقميصه المعلقين على شباك السرير • يأخذ كراساته من درج الدولاب • ثمة درج آخر فيه حاجات الخالة أما الخال فانه يكوم كتبه فوق طاولة الكتابة الخاصة به ويضع ماعدا ذلك فى درجين صغيرين يغلقهما بمفتاحه • يؤتى بالحصير الى الصالة ، تفرش وتضع عليها الطبلية للافطار • يحس عبد العزيز أن حلقة الجالسين الى الطعام صغيرة فى جوف الصالة الكبير • وأنهم بردانين • ربما تكون هذه الجلسة فى الظهر أكثر دفئا وانطلاقا وأكثر قدرة على ملء جوف الصالة الكبير لكنه فيما عدا أوقات الطعام فان الصالة تكون صامتة •

كان عبد العزيز يمشى فيها أحيانا وحده · يتلفت متأملا · الصمت فى داخلـه وعلى الجدران وفى هذا الفـراغ يتصنت على رجع خبطات قبقابه على البلاط · يراجع ذلك ويرى كم يدوم · ثم يجد أن ادمان هذا يجلب عليه كآبة خاصة · يتسلل كأنما يريد أن يمشى خلف ظهر خوف خاص يراقبه من الزوايا التى تتراكب فيها الظلال ، من قبح المصـباح المتدلى وحده بأكوام الذباب والزجاجة الوسخة فى الفراغ الصامت ·

يخرج الى الشرفة · كان عبد العزيز يحبها · فيها الباب المؤدى الى غرفة الجلوس · وفى مقابلة منها ينزل السلم الى باب الشارع ومن جهة الحديقة سياج من الخشب والحديد المشغول · ها هنا يفرشون الحصير ويتعشون فى أماسى الصـيف · وهنا يلعب عبد العزيز وخالته الصغيرة فى العصارى ، وعلى الحيطان رسومهما بالقلم الرصاص وسطور من محفوظاتهما أو من الأغانى التى تسمعها الخالة من مذياع الجيران ·

أما الحديقة فكانت فى الحقيقة قذرة جدا · يحيط بها سور من الطوب الأحمر متهدم فى أكثر من مكان · فى الناحية الشرقية منها تعريشة عنب كبيرة تحتها غرفة غير مفروشـة فيها فرن الخبيز · وكانت أسرة الجد تشـترى أحمال الحطب من أعواد القطن وتخزنه للوقود أمام الغرفة تحت التعريشـة · وكان فى الجنينة طلمبة لها حوض ضخم من الاسـمنت ، يمتلىء وتتكون حوله بركة يأسن فيها الماء دائما ، وتكون أرض الحديقة كلها سبخة ناشعة ·

كانت الجدة تقف فى وسط الحديقة وتتأمل حولها أسيفة · تتناثر هنا وهنا ، على شطئان بقع الماء ، حزم من نباتات وحشية تصفر أو تحترق أطراف أوراقها المتربة الوسخة · وماعدا ذلك فالأرض الناشعة السبخة لا تنبت شيئا · ومن باحة الخنازير عبر

الباب الخشـــبى فى جدار الجنينة حيث بيت الخواجة الايطالى العجوز ومسكن أسرة صاحب البيت ، يأتى دائما من يطلب المــاء من الطلمبة ويغسل أوانيه ويزيد بلل الأرض حول الحـــوض ٠ والجيران الذين بأعلى يلقون بقاذوراتهم من شرفتهم الى الجنينة رغما عن كثرة الكلام معهم حول هذا ٠

تقف الجدة قليلا آسفة ثم تثوب فلا شىء يمكن عمله ٠ الا انها زرعت بضعة بذور لوف جنب الجدار تحت الاشجار وتسلقته وجابت نوارات صفراء زاهرة ثم جابت كيزان لوف ضخمة كانت الجدة بها فخور ٠ ثم انها بعد ذلك ربت فى الحديقة بضعة بطات كبرن وسمن ٠ وعبد العزيز لا ينسى ذكر البط الهائل ٠ كان ماهرا فى صيد العصفورات الصغيرة ٠ يبقى ساكنا فاذا ما مرت من جنب أنفه مارقة لقطها من الهواء بسرعة خارقة وظل ينشر فى جسمها بمنشار منقاره وهى تصاصى حتى تغيب فى جوفه وهو أحمر العرف أسود لامع الريش يفح فحولة ٠

لكن الجدة كانت يوم الخبيز تزدهر وتشرق ٠ تجلس بجوار ماجور العجين فى غرفة الفرن التى بلا سقف تناول القرصـــات الخبازة على مطرحتها وهذه ترحرحها ثم تزقها فى داخل الفرن كان عبد العزيز فى غرفة الفرن والجلسة أمامها سمة ريفية كأنما المنظر منقول بتمامه من القرية ٠ وكان يرى أن جدته تمت الصورة، وتوجد فى قلبها ، كأنها جزء منها ٠

لكنها فى المطبخ لا تكون سـعيدة هكذا ٠ كان عبد العزيز يعـود من مدرسته ظهرا جائعا ٠ يسرع الى المطبـخ مأسـورا بروائحه ٠ هناك كان يجد جدته واقفة وسط البخار والدخان العابق والسقف فوقها أسود من سناج مواقد الكيروسين ، وجهها أحمر قاتم مزرود والشمس من الشباك الغربى والجنوبى مسلطة على أرض المطبخ ناصبة عمودا مائلا من دخان يشعشعه الضوء ٠

تهمد ضجة الغداء ويأوى الجد والجدة الى غرفتهما وتلعب الخالة الصغيرة لعبة الحجلة فى الشرفة وعبد العزيز فى فراغ الصالة وحده يتأمل فوقه وحواليه شاردا كأنما هو يستطعم تلك الكآبة التى يحطها المكان على قلبه · يقيس صدى طرقعة قبقابه ، يتسكع جنب الحيطان · يتحسس برودة مقابض الابواب · يحصى بقع الطلاء وهجومها وما تصوره من تهاويل ·

واذا صحا الجد من نومه فانه سيمضى من غرفته الى غرفة الجلوس مارا بهذه الردهة وكأنما هو لا يراها · كأنما حمل الكآبة هذا المعلق بالعتمة لا يلفت نظره · قد يرى على تغضنات عابرة فى جبينه أو ارتجافه واهنة فى شفته · لكن لا زيادة · بل انه كان أن نزل به ضيف قاده من باب الشارع عبر الشرفة الى غرفة الجلوس بعد أن يستوثق من اغلاق بابى الردهة على الشرفة وعلى الغرفة · وهكذا لا ينكشف الضيف على ما هو مستور مكتوم ·

وحتى الخالة الصغيرة ان جاءتها صويحباتها ، لعبن معها الحجلة خلف باب الشارع أو فى الشرفة دون أن يغفل ذلك الحرص الخفى على بقاء داخل البيت مستورا · وكذلك فانه لما مرض الخال مرة ولم يكن معقولا أن يستقبل عواده فى غرفة الجلوس ، فانه رقد فى سرير أبيه · وأمر عبد العزيز أن يقود العواد اليه من باب خلفى يقود الى غرفة نوم الجد حيث يرقد الخال ·

كان فى القلوب كلها شىء مكسور ذليل مناطه هذا البيت · هذا الشعور كان يحير عبد العزيز بحيث كان يجهد أن يتحسسه ويلم بأطرافه · وعليه فلم تكن لديه نية التجسس حينما فتح باب الغرفة الداخلية خلف غرفة الجلوس والتى يكوم فيها خزين المعاش وسقط المتاع · وجد الغرفة غارقة فى العتمة والخال واقف خلف شيش الشباك يختلس النظر الى مسكن الجيران الطليان · لم يكن

عبد العزيز يقصد سوى أن يتحسس تلك الرغبة الغامضة فى الهجر التى تسيطر على الجميع ٠

لم يجد عبد العزيز رغبة فى اللحاق بالخالة فى الشرفة المعب الحجلة ٠ واصل جولته الكئيبة المتأملة ٠ عبر باب الصالة الزجاجى محاذرا طرقعة قبقابه الى الطرقة التى فيها الحمام وعلى طرفيها غرفة الجد والمطبخ ٠ يتسكع عبد العزيز شاردا ٠ المطبخ الآن ساكن راكد ٠ يبدو سواد سقفه وأعالى جدرانه أكثر قتامة ٠ الرفوف بنية مسودة تترامى عليها أوانى الطبيخ النحاسية مسودة فى جلافة ٠ الطاولة مفروشة بأوراق الجرايد ٠ مواقد الكيروسين قائمة عليها ناشعة من أجوافها ٠

يطل عبد العزيز من شباك المطبخ على شقة الجيران الطليان ٠ كأنما يحاول أن يجرب ما يحسه الخال فى مثل وقفته ٠ بين المبنيين نهر الشمس الحارقة الجارى فى الممر ٠ لكن شبابيك ذلك السكن عليها ستائر ٠ وأمام الباب توجد ممسحة للاقدام ٠ خلف الستارة يرى مائدة عليها اناء فيه وردات حمراء ٠ يسيطر على عبد العزيز خوف ٠ ربما يراه أحد ٠ لكنه يدمن هذا الشعور ولا تكون لديه القدرة على التحرر منه ٠

رويدا يعود الى الردهة محملا بالاثارة فى قلبه ٠ حينما تكون الخالة وزوجها وأولادهما هنا فان حفلة الغداء تكون أكثر صخبا ٠ والحصيرة لا تجمع بعد الأكل مباشرة بل تبقى فى الصالة تجلس عليها الخالة والجدة معا يثرثران ٠ تشيع فى البيت فرحة بزيارة الخالة تشمل عبد العزيز ٠ الآن فقط يكون البيت عامرا ٠

لكنه وقت لا يطول فسرعان ما يسيطر على جلسة الجدة والخالة الحديث ذو الشجون ٠ وعادة ما تجهش الخالة بالبكاء ٠ بل قد يكون نحيبا عميقا ٠ وتنخرط فى ندب سوء المآل وخيبة

الحال • وتتذكر سراى الأسرة الكبيرة فى القرية الأصل وتحكى عن غرفتها وردهاتها وعن الارائك والاسرة والمصابيح والشرف وعن حديقة شاسعة محيطة وعبد العزيز مبهور يملؤه التحنان • فلماذا لم يدم الحال القديم • وما سر ذلك المحل الذى لا راد له •

لكن عبد العزيز يراوده الشك فى حكايات خالته ، يسأل أمه • ويشمل الأم حزن من صنف ذلك الذى يسيطر على الخالة وتسرف هى الأخرى فى الشوق الى سراى الأسرة القديم • ويواصل عبد العزيز تحريه عند أبيه • يقول الأب أنه كان لأسرة الجد بيت جيد معمور • وكان فيه فرش جيد ، سرر وأرائك • وأنه كان منزلا يكرم فيه الضيف •

كان عبد العزيز يسلم يده الى خالته كأنما تمشى خطوات يقصد أن يمشيها • تذهب الخالة لزيارة أقارب لأبيها فى بيت غير قريب • كان له باب صغير على الشارع اذا عبرته صعدت سلمات قليلا الى شرفة فيها باب يؤدى الى الصالة • والصالة وثيرة مفروشة ليس فيها أقل القليل من العراء • كراس وأرائك مذهبة مكسوة بالحرير ناعسة فى الأضواء الكهربائية المتناثرة تحت كمات عليها رسوم فروع مورقة مثمرة • فى كل ركن مناضد صغيرة عليها لعب من الخزف المرسوم • من السقف تتدلى ثريا كبيرة تلمع أضواؤها على رخام نضد واطىء فى الوسط عليه اناء خزفى كبير مرسوم •

تجلس الخالة الى أقاربها اللابسات أسود يرمقن الجدران المعلقة عليها صور الموتى ، ناس كانوا مرموقين بشوارب وطرابيش يحكون بهمس ، وقد تنخرط الخالة فى البكاء • يسمعون القرآن من مذياع فى دولاب صغير جنب الحائط • يتمنى عبد العزيز أن يقوم ويجول فى البيت ليرى ويعرف لكن العيون الحزينة

التى لا تغفل لصاحبات البيت تحرس هواجس عبد العزيز وتئدها فى مولدها .

لكن الانسان لا يستطيع أن يبقى دائما حزينا مقيدا فى كنف الكآبة . كان عبد العزيز يذهب يتمشى فى صحبة أقاربه الكبار على شارع البحر . ثم أصبح يذهب وحده . فميت غمر واقعة على فرع النيل . وشارع البحر أجمل شوارعها ، يفصله عن الضفة شريط طويل من متنزهات بديعة التنسيق . وعلى الجهة الأخرى قصور كالأحلام كان عبد العزيز يتأمل ذراها وشرفاتها وحدائقها . تتوهج فى داخله اثارة مبهمة يمضى بها صامتا شاردا .

من شارع البحر تتحدر الشوارع متربة غير مرصوفة ، فيها كثير من البيوت القديمة ، وفيها كذلك عمارات جديدة ما تزال بعد زاهية الألوان . لكن أهم هذه الشوارع هو شارع المركز . يمشى عبد العزيز فيه يتأمل واجهات العرض فى المحلات التجارية ويتفرج على دهشة الريفيين وفرحتهم بزيارة المدينة . لكن عينيه تتطلعان الى المساكن فى العمائر فوق هذه المحلات . غالبا ما يسكنها اليونان والطليان واليهود . يرى سيداتهن ينشرن الغسيل فى الشرفات . ويرى الظلل وأوانى الزرع . ويرى نظراتهن المتعالية تزود عن أشيائهن كل متطلع . ينكس عبد العزيز بصره ويمضى .

يصير الشارع وسخا صاخبا مليئا بالعدوانية والشراسة . فوق المحلات التجارية ، الآن ، عيادات الأطباء ومحلات الخياطين وغير ذلك . يضجر عبد العزيز . يترك هذا الشارع وينحدر الى تلك الشوارع غير المرصوفة ، متربة وسخة فيها بيوت واطئة متهدمة تكب ماءها الوسخ أمام الأبواب . يعبر عبد العزيز شريط سكة الحديد الصغيرة (الدلتا) التى تقسم البلد وينحدر الى حى

لكن الجميع فرحوا حينما جاء الخبر ان الخال الاكبر قادم بزوجته ليعيش معهم هنا فى البيت ويعمل فى ميت غمر ٠ وكان الخال قد أحضر معه طاقما من الكراسى حديثة الطراز وبساطا رائعا ٠ وضع ذلك فى غرفة الجلوس ٠ أخرجت الكنبات العربية الى الصالة مع البساط من الصوف البلدى ٠ كذلك فقد وضعت مائدة للطعام حولها كراسى من الجلد ٠ اتخذ الخال الغـــرفة الشرقية لنومه ونقل عبد العزيز وخاله وخالته حصيرهم وفرشهم الى الغرفة الغربية حيث نظفت من الأشياء القديمة والخزين ٠ وضعوا فيها كذلك طاولة الخال وكرسيه ٠

سر هذا التغيير عبد العزيز كثيرا ٠ انه بعد مايزال ينام على أقصى الحصير ويتدحرج فى الليل ويبقى عاريا مما ســـبب له سعالا دائما وهزالا وحساسية ضد البرد ٠ وماتزال تعلق ملابسه على شباك سرير الجد وتوضع كراساته وأشياءه فى درج دولاب الجدة ٠ الا أنهم الآن يأكلون على السفرة ٠ وبعد الظهر يجلسون فى الردهة على الكنبات ويثرثرون أحاديثهم ٠

كان عبد العزيز يتأمل هذه الردهة الآن وحده ٠ ان كآبتها طردت وهزمت وهربت الى الزوايا والاركان العـــالية ٠ ولايزال الخال يجد فى مطاردتها ٠ صنع للمصـــباح العارى المدلى من السقف كمة من الورق الملون الجميل ٠ نزع صور ممثلات ونجوم السينما من المجلات وأطرها وعلقها على الحيطان ، وبهذا أصبحت الردهة مكانا لطيفا ٠ لكن شيئا ما كان بعد قائما لم ينمح ٠ تلك المسحة من التراب والقذارة على الجدران خلف الصور ٠ تلك الزوايا المتربة البعيدة ٠ انها مطرودة بعيدة لكنها هناك ٠

والخال مازال كادحا فى اضفاء الرونق على البيت ٠ جلس القرفصاء وأصلح حصيرة كرسى طاولة الخال ٠ ولما لم يجـــد قشر الخيزران فانه استعمل الدوبارة ٠ أصلح بالوعة حوض المطبخ

التى كانت منذ سنين مسدودة · أصلح طاولة الطبيخ للجدة · اشترى مذياعا وصنع له رفا جميلا ، فى الصالة تجلس الى جواره الخالة تسمع وتعمل بأبرتها تطرز مفارش وفساتين ·

بالنسبة للحديقة أحدث تطويرا أساسيا · منع منعا باتا أن يأتى الناس ليأخــــذوا ماءهم من الطلمبة · وعلى أى حال فان الخواجة الايطالى كان قد مشى بخنازيره ولم يكن ثمة من يحتاج ذلك احتياجا ملحا · ثم ان الخال نبه على الجيران ، بأعلى ، تنبيها حاسما ألا يلقوا بأقذارهم فى الجنينة ·

نظف غرفة الفرن · استحضر جناينيا شذب الكرمة · زرع الجنينة زهورا وحوض طلمبة الماء بالياسنت · جاء الربيع وصارت الحديقة جنة ملونة · والخال سعيد مزدهى الوجه فى المساء يكب على عمله · يعمل فى رسم البيوت · يظل عبد العزيز جالسا الى جواره يسأله وهو يوضح كل شىء · تلك شرفة وهذا شباك بحرى والبيت بذلك يكون رائعا · وكان يتاح لعبد العزيز أن يرى البيوت بعد تمام بنائها · صغيرة زرية تختلف تماما عن الحلم ·

كما أن كمات المصابيح بدأت تتسخ ، يغزوها التراب ويخرأ عليها الذباب · واتضح أن صور نجوم السينما مبتذلة وورقها رخيص تتغير ألوانه · وللمحافظة على الحديقة كان يلزم وجود جنايني مقيم يجتث ما ذبل ويزرع الجديد دائما · والخــــال بدأ يتعب والحيطان الكالحة بدأت تطل مرة أخرى من وراء الزينة التى تذوى وتبهت · وبدأت روح البيت العجيبة تغزو الخــــال نفســه وتظهر فى عينيه تلك الأشواق المبهمة الى الخروج والهجر ·

وحينما انتقل الخال الاكبر الى مدينة بعيدة وأخــــذ معه أشياءه ، عاد البيت عاريا وكئيبا كأن لم يكن قبل ذلك أبدا · ثقل المرض على عبد العزيز · لم يعد الخال الأصغر يرى فى

البيت الا نادرا • كف الجد عن الذهاب للعمل بعد احالته للمعاش ، كان يبقى فى سريره حتى الضحى يسعل وترن سعلاته فى البيت • انقطعت الخالة عن الذهاب للمدرسة وبقيت تأخذ الكرسى الوحيد وتجلس فى الشرفة تطرز • وعبد العزيز يتجول فى البيت يتأمل حواليه • انه لابد أن يمشى •

جاءه الخال الأصغر مرة وطلب منه أن يصحبه • مشيا فى ميت غمر حتى الحكر • أوغلا فى الحى وعبد العزيز واجف القلب • الوقت ليل وأضواء مصابيح الأعمدة فى الحارات متباعدة وعبد العزيز يدوس فى الاقذار ، الروائح والخوف يخرجانه عن طوره ، حتى وقفا أمام باب بيت قمىء من بيوت الحكر •

الباب صغير خلفه ردهة عرضها ذراع مظلمة غامضة • من أعماقها جاءت ضحكة أمرأة عجوز • كاد عبد العزيز يفر راجعا • لكن الخال قبض على يده • دخلا على اليمين غرفة بشعة أرضها طينية رطبة • يضيئها مصباح بترولى صغير • يقسم زاويتها حبل معلق عليه فرش وملابس ، فى الحيطان مسامير مدقوقة تثبت أغلفة مجلات نسائية فيها صور نجوم سينما • فى الركن سرير محمول على أربعة أحجار من الجوانب الأربع • فى الركن الآخر برميل من الصاج له حنفية وتحته طست وحواليه بلولة • كان الخال متزوجا بصاحبة الغرفة •

بعد مرض الجدة كان الجد ينام وحده على الكنبة فى غرفة الجلوس • توسخت ملاءاتها وأصبحت لاتطاق • كذلك فان سرير الجدة مبهدلا متسخا فاقد الرواء • كان الخال يبيت مرات كثيرة فى الخارج فيعاد ترتيب الفرش على الحصير وتظفر الخالة بالمرتبة • لكنها كانت صامتة مكتئبة تتمنى أن تتزوج • والناس أصبحوا يبصقون بلا اهتمام على الأرض •

لم تعود اجتماعات الأماسى فى غرفة الجلوس تتم لمرض الجد ولزومه الغرفة · كما أن الجلوس طويلا مع الجدة المريضة لم يكن مسليا لأحد · كان عبد العزيز والخالة يقضيان المساء على الحصير ومن يريد أن يكتب شيئا يمكن أن يستخدم طاولة الكتابة الخاصة بالخال · وغالبا ما كان الصمت يسود · ما يتقدم المساء ويهدأ المريضان حتى يحل نوع من الصمت ويصير التجول فى البيت ، الذهاب الى المطبخ أو المرحاض ، عملا مقبضا كان الخال يأتى مختلسا يبقى قليلا يسأل أسئلة موجزة ثم يمضى خارجا ·

كانت أسئلة الخال تدور حول صحة والديه · وأخيرا قال أنه فى الحقيقة يرى أنه حقيق بميراث الدولاب والسرير والكنبات وأنه يريدهم بسرعة · ولم يكن ثمة من عبد العزيز أو خالته استجابة محددة · لكن عبد العزيز عرف أنه ينبغى أن يعود · هذا البيت لم يعد ، حقيقة ، يطاق ·

حضر عبد العزيز لزيارة ميت غمر بعد ذلك بحوالى ثلاثين عاما بعد أن كان قد رحل الى برلين واستقر فيها وقدم لزيارة مصر زيارة قصيرة · مشى فى شوارع ميت غمر تائها بين صور اللحظة وصور الماضى التى تسيطر على خياله فما يكاد يرى أمامه · طرق على باب بيت خاله · باب هزيل من خشب أهلكته الشمس · فتح الباب وظهر الخال سمينا عجوز الوجه غير حليق يرتدى جلبابا من الكستور · سلم على عبد العزيز وفى عينيه دموع وصوته مرتجف وراء الباب باحة صغيرة وسخة فيها بطات ودجاجات ومسقاة · غرفة الخال فيها سرير حديدى وفراش وسخ ومائدة صغيرة وكرسى · الزوجة غائبة والعيال الكبار وليس هناك سوى ابنه الصغير ينظر الى عبد العزيز لا يعرفه ولا يفهم شيئا ·

ظل عبد العزيز شاردا معلق العينين بوجه الخال · اشفاقه عليه يعصر قلبه · تأتيه ذكرى اللحظات الكئيبة فى منزل جده لأمه ·

تركت فى روحه جرحا لا يندمل · أترى أيهما أوثق عرى · قرابة الدم بينه وبين خاله · أم قرابة روحيهما اللتين ضويتا فى كآبة بيت الجد · ألهذا قدم خصيصا ليزور الخال ؟ منذ متى بدأ قوس انهيار الخال الى الحضيض ؟ أكان ذلك فى بيتهم القديم ؟ أترى تنتظر عبد العزيز أيضـا نهاية مروعة حينما تفترسـه الغرف المقبضة وتقضى عليه ؟

خرجا الى المدينة · الباحات المنفسحة من الأرض ، تلك التى عرفها عبد العزيز فى طفولته ، اختفت الآن · زحمتها بيوت صغيرة وسخة · الشوارع ضاقت وفاضت منها المجارى والروائح تزكم الأنوف · النسوان والعيال والوساخة وهما يمشـيان صامتين كأنما يزوران مقبرة · عادا الى البيت · سلم عبد العزيز ومشى يحمل الخال فى قلبه سمت عجوز الوجه ، غير حليق ، عيناه مفعمتان ذلا وقهرا ·



منذ قبل أن يعى عبد العزيز ، وهو يتردد على طنطا فى يد أبيه · يأتون المدينة فى الصباح ويئوبون عصرا ان على المطايا أو فى القطار · وفى كل المرات كان الأب يزور أطباء أو محامين أو شيوخا أصدقاء فى غرف قديمة وســيعة عالية الجدران ودائما تكون رثة بالية متهالكة · فاذا ما عاد عبد العزيز الى البلد فهو مرهق مكتئب شارد · وكان ينصت للاب يحكى لرجال عن رحلته وعن ســعادة جربها · يحاول عبد العزيز أن يراجع الحكاية ، تصبح عنده كلها الا تلك الاحساسات التى نعم بها الأب ، تبقى على قلب عبد العزيز غريبة وغير متاح فهمها له ·

قد يتذكر الولد زيارة المحلات التجارية الكبيرة وشــراء الملابس والطرائف · قد يتذكر زيارة ضريح السيد البدوى وذلك العبق الفائح منه والثريات والورود والقبة الشاهقة المزينة · قد يتذكر عبد العزيز المشاهد ويتذكر انبهاره بكل هذا · لكنه يبقى انبهارا أبعد ما يكون عن الســعادة التى تهزه من أعماقه وتبقى فى قلبه ·

ها هو عبد العزيز قد أتم دراسته الابتدائية فى ميت غمر والتحق بالمدرسة الثانوية فى طنطا · ها هو فى المدينة مالك أمر

نفسه يواجهها بمفرده ، قد تحرر معصمه من يد الأب وانفتح قلبه لهذا الكيان الكبير يتسرب اليه رويدا رويدا · فى المساء يخرج هو والعيال من أبناء بلدهم الذين يدرسون مثله فى المدارس أو المعاهد الدينية · يخرجون الى المساء الباهر بأضواء الكهرباء يتفرجون على واجهات عرض البضائع الرائعة والحلويات الشهية · يبدأون من ميدان المحطة داخلين فى شارع المديرية حتى ميدان الساعة ثم يميلون يمينا فى شارع البورصة حتى ميدان البلدية ثم يواصلون فى شارع الملكة فريدة ·

يصير شارع الملكة فريدة وسخا والمنازل على جانبيه متهدمة والأشجار غير معنى بها ويحس عبد العزيز بشعوره القديم عند ايابه من طنطا ، الارهاق والاكتئاب والشرود · يلجون فى شارع القشطى المظلم الطويل القذر المتحدر · البيوت على الجانبين كتل رثة معتمة تأتى منها روائح خاصة وأحاديث مكتومة وضحكات أو صراخ وعراك · يسرع عبد العزيز وصحبه من العيال متلفتين حذرين ·

يعبرون من تحت جسر القطار الى كفرة الجاز · لا يعرف عبد العزيز لماذا سميت هكذا · لكنها كفرة صغيرة وسخة ذات سمات ريفية · هنا كان عبد العزيز يسكن مع آخرين من البلد أو من بلاد أخرى · البيت صغير واطىء · يفتحون الباب بحذر لتقابلهم رائحة المرحاض الكائن تحت السلم الطينى الصاعد لأعلى · يحذرون فى صعودهم السلم الذى بلا سياج · يقيمون ثلاثة فى غرفة واحدة · هناك غرفتان أخريان يقيم فى كل واحدة ثلاثة تلاميذ · ثمة اناء كبير لماء الشرب والغسيل ·

غرفتهم مفروشة بالحصير · كل منهم يجلس فى ركنه على فراشه وبجواره سلته التى فيها طعامه · كل منهم يعلق خلفه على مسمار فى الحائط مصباحا بتروليا ويضع كتبه الى جواره ·

لا يزال عبد العزيز يتذكر الأماسى فى هذه الغرفة · يجلسون ، كل مشغول بقراءته · أحيانا يضعون الكتب من الأيدى ويبدأون يتحادثون بود ويضحكون من القلب · وفجأة دونما مقدمات ينشب فى الصدور غل العداء ويشب العراك · لكنهم لم يكونوا يتماسكون بالأيدى · حتى اذا ما أجهدهم الحرد آوى كل الى ركنه وهو كظيم · وقد يقدمون على الخروج للتفرج على الشوارع · ونوافذ العرض ثم يئوبون وفى القلوب اكتئاب ينامون به الى الصباح ·

وفى الصباح يكون زعيق وصراخ بالذين يقضون وقتا طويلا فى المرحاض بينما ينتظرهم آخرون على السلم يلفون الساق على الساق من الحصر والكرب · ويكون زعيق وصراخ بالذين يسرفون فى الماء ويدلقونه على الأرض · ويكون زعيق وصراخ لغير ما سبب معلوم حتى تطفر الدموع فى العيون كمدا أو شماتة · كل هذا يزداد وقعه على النفس من صوت قرقعة الأوانى وانصباب الماء فى الطست · حتى لحظة معينة ينقض فيها واحد على كتبه يخطفها ويسرع بها الى الشارع ووراءه الآخرون · يمشى قطارهم يحث الخطى الى المدارس والمعاهد ·

يمشى عبد العزيز فى شارع الملكة فريدة · هذه البيوت تبيت وتصبح مثلما كانت عليه بالأمس · لا شىء يتغير · والناس يخرجون فارين مذعورين ويعودون مترددين خائفين · الشارع وسخ وصخاب لدرجة الجنون · يمشى عبد العزيز مع رفاقه وسط جموع التلاميذ · يعرفهم الناس بسيماهم الريفية · يعيشون فيما بينهم ولا يختلطون بأهل طنطا أبدا ·

يميلون فى شارع البحر ، أروح لنفس عبد العزيز ، عريض مقسوم من وسط بمساحات من النجم الأخضر ، بعض البيوت على الجانبين جميلة حتى يصل الى مدرسته · وهى بناء لم يحببه عبد العزيز أبدا · كان معملا للدخان · لا تزال على واجهته علامة

الشركة المسجلة فى صورة أيل مشرئب تحت كلمة « ماتوسيان » اسم صاحب الشركة اليونانى الأصل · والأبهاء الطويلة أنشئت فيها على الجانبين صفوف غرف الدراسة · والغرف عالية السقوف لها نوافذ زجاجية هائلة الحجم · والردهة أمام الغرف طويلة بلا نهاية ولا زخرف · فاذا هبطوا الى الفناء فهو شاسع قحل تطل عليه جدران المدرسة العالية الجرباء ·

يعود عبد العزيز الى غرفته فى كفرة الجاز · يمشى بطول شريط السكة الحديد الذاهب الى المحلة الكبرى · مساكن صغيرة اسمنتية يسكنها العمال ملاحظو الجسور · تجلس النسوة أمام الأبواب منحنيات على طسوت الغسيل · على الضفة الأخرى بيوت كفرة الجاز ·· دكاكين صغيرة تبيع البقالة ولوازم البيوت · الشارع بين الصفين قذر موحل منتن · يميل عبد العزيز · يدفع باب البيت · فى الدور الأرضى يسكن فقيه أعمى وبناته الثلاث فى غرفة واحدة · يسلم ويصعد الى أعلى صامتا ·

الساعات تكرر نفسها فى الغرفة ومع رفاق السكن · لكن صباح الجمعة له شأن آخر · يقومون من النوم مهمومين · يأخذون الملابس والمناشف والصابون ويذهبون الى المسجد الصغير القريب · ملحقة به من خلفه دورة مياه غير مسقوفة · يلجون من الباب لتواجههم الرائحة الزاعقة · صف طويل من المراحيض أمامه دائما جمع من الناس ينتظرون محصورين مكروبين · فى الناحية المقابلة صف طويل من حنفيات الوضوء · تختلط كركرة الماء بتسابيح الوضوء ·

يقفون فى انتظار دورهم للاستحمام أمام محمين صغيرين فى آخر صف المراحيض · ناس آخرون من أهل الحى ينتظرون · وجوههم شاحبة متورمة وعيونهم عكرة من المرض والقرف · عندما يحل بعبد العزيز الدور يتقدم فى أدب الى حارس الدورة الضخم

الجثة الخائر البنيان ويضع فى يده قرشا ثم يلج الحمام . الأرض زلقة والجدران مخضرة بالطحلب والحمام دافىء زخم بالنتن . الماء يسيل مثلجا على جسم عبد العزيز يصنع خطوطا حمراء على لحمه . يتقافز ويرتعد الا أنه يحمم نفسه جيدا ويخرج مرتجفا .

يصلون الجمعة مع الناس . تطيب روح عبد العزيز ونفسه فى جو المساجد . مكنون من شراسة الضوء والعفار والصخب . لكنه صغير رث رطب . وثمة فى الناس عدوانية ، وقهر يبدو فى مخارج الكلمات وفى نظرات العيون وحركات الأيدى . يبالغ عبد العزيز فى اظهار الأدب والورع حتى تنتهى الصلاة ويخرجون .

فى صلاة الجمعة يلتقون بغيرهم من أبناء بلدهم ويمشون جماعة آيبين فى الشارع بين صفى البيوت القميئة الكالحة الواجهات يتجنبون الأوحال والأقذار ونظرات الناس المستغربة . يكونون مرحين كأنما مرحهم تشبث بالحياة فى هذا الاطار التعس المحيط بهم .

فى هذا اليوم يتزاورون أو يأكلون معا جميعا . كلهم عيال من سن عبد العزيز تقريبا فى المدارس أو فى المعهد الأزهرى الثانوى . ويسكنون فى غرف مماثلة لغرفته ونمط حياة مشابه . ثمة أيضا عيال صغار فى الصفوف الأولى من المدارس الابتدائية أرسلهم الأهل ليكونوا فى عهدة الكبار . فى الليل تحت الأغطية ، فى حصر الغربة وهذه الغرف الكئيبة يتحاضن العيال ويلوط الكبار منهم بالصغار . تحكى هذه الحكايات فى كثير من الضحك . لكن التعاسة تلون الكلمات ويستبد بعبد العزيز الرعب والاشمئزاز .

لما التحق أخو عبد العزيز وابن عمه بالمدرسة الابتدائية كان على الثلاثة أن يستقلوا بغرفة . كانت فى الدور الأرضى فى حارة ضيقة لا تدخلها الشمس أبدا . يكنسها عبد العزيز كل يوم ومع

كل ضربة مقشة تخرج أسراب من الخنافس والصراصير وما يجن الليل حتى ينهمر البق زحفا على الحيطان مثل مطر حارق كاو حتى يكاد عبد العزيز يبكى قهرا ومذلة · فى الصباح يمضى الى مدرسته · الشوارع باهرة الضوء ، لكنه يحمل الغرفة المعتمة فى قلبه · يقضى النهار صموتا عزوفا ·

تعرف على تلميذ فى مدرسته · دعاه الى بيته · اقتيد الى غرفة الجلوس مباشرة · الغرفة فيها أريكتان عربيتان مكسوتان بقماش أبيض مغسول وعلى الأرض بساط بنى من صوف الغنم به مربعات بيضاء · تشبه غرفة الجلوس فى بيت جده · على الحائط صورة للاب جالسا على كرسى يضع يده على كتفى الابن الذى كان طفلا صغيرا فى سراويل قصيرة وعلى رأسه طربوش ·

مع الوقت تعرف عبد العزيز على البيت كله · توجد ردهة صغيرة فيها طاولة قديمة طلاؤها بنى غامق نحل فى أماكن عديدة · حول الطاولة عدة كراسى · والردهة فيما عدا ذلك عارية · بياض الجدران ساقط فى أكثر من مكان · بلاط الأرض فقد لمعانه ونصاعته · الغرف الأخرى عارية الأرضية عارية الجدران ليس فيها سوى أسرة خشبية قديمة · لكن ثمة جهد للاحتفاظ بالفرش نظيفا · توثقت علاقة عبد العزيز بصاحبه شوقى · لم يعد عبد العزيز يخجل أن يريه غرفته ·

لكنه أصبح من غير الممكن احتمال الغرفة أكثر من هذا · لشتكى عبد العزيز لعمه برمه بغرفته · سأل هذا أصحابا له دلوه على غرفة جيدة على سطح عمارة يسكنها ناس حسنو الحال · الغرفة واسعة مليئة بالضوء ، تؤجرها سيدة مطلقة ضخمة شديدة السمانة تقيم هى وابنها الصغير فى شقة تقابل الغرفة فى الجهة الأخرى من بسطة السلم ·

كان المرحاض وصنبور الماء فى شقة السيدة · وهى لم تكن تسمح باستعمالهما الا مرة واحدة فى الصباح ، يقف عبد العزيز أمام بابها وفى يده الطفلين يتلويان من الحصر · ينقر بابها بأدب نقرا خفيفا · تفتح السيدة فى قميص نومها · تهب رائحة نومها ورائحة مسكنها · يدخل عبد العزيز بالطفلين · شقة السيدة عبارة عن غرفة تقابل غرفة عبد العزيز · تزيد أن أمامها ردهة صغيرة ومرحاض وصنبور · الشقة وسخة ومكتومة ومكدسة بالأشياء بلا نظام ومعتمة · يخرج عبد العزيز مسرعا بعد اتمام اغتساله هو والطفلين ويغلق الباب بهدوء وراءه فقد عادت السيدة وغرقت فى النوم ·

لكن الطفلين كانا يحتاجان قضاء حاجتهما أحيانا فى المساء · ولم يكن ثمة حل · يحملهما عبد العزيز عبر شباك الغرفة الى فراغ السطوح · يقضيان حاجتهما فى العراء · يحملهما عائدا بهما · كذلك اذا فرغ ابريق الماء · يحمله وينزل به الى سكان الشقق فى الادوار التحتية ويقف حتى تعود الخادمة بالابريق الممتلىء ·

لكن ملء الابريق كان مغامرة يخفق لها قلب عبد العزيز · ينزل السلم العريض حذرا · ينقر باب المسكن ذا المصاريع الزجاجية خلف شبك الحديد · واذا ما فتحت الخادمة الباب سائلة ماذا يريد أجاب خفيضا مؤدبا انه يرجو ملء الابريق بالماء · اذ ذاك تتسلل عيناه الى الصالة الفسيحة · باب الشرفة فى آخرها عليه ستائر ثقيلة بنفسجية غامقة تلقى بظلالها الملونة على السجادة وعلى الكراسى الكبيرة المريحة حول منضدة مستديرة من المرمر · ومن السقف تتدلى ثريا ذات خمسة أفرع من النحاس المشغول يحمل كل فرع مصباحا من الزجاج الوردى المحلى برسوم ·

يعود حاملا الابريق صاعدا السلم · ومرأى الصالة قد شحنه بانفعالات معقدة · يعود الى غرفته المائلة بالضوء · يتأمل الحيطان

والسقف الذى يسخن بالشمس وتثقل وطأته على النفس ٠ يدور فى الغرفة رائحا غاديا أو يستلقى على سريره ٠ يقوم الى الشباك يتأمل بيوت الناس حواليه ٠ ستائر النوافذ وقطع الأثاث اللامعة ٠ تخنقه الحسرة والانقباض ٠ ما يحل المساء حتى ينزل الى الشارع ٠ الأضواء الباهرة تسكره وتنسيه ٠ لكن كان ثمة احساس دفين بأن خلف هذه الأضواء ونوافذ العرض يوجد شىء فقير ممحل ينطوى على قسوة وحشية ٠

تعرف عبد العزيز على مدرس التربية الاجتماعية ٠ لقد ضحك الناس عندما جاء للمدرسة ، فان أحدا لم يعرف ماذا سوف يدرس بالضبط ٠ لم يعط مكانا فى غرفة المدرسين ، انما وضع مكتبه فى البدروم ٠ نزل عبد العزيز سلما الى قاع مظلمة ومشى فى سرداب طويل ٠ حكى له زملاؤه أن هنا طاولة للعب كرة المضرب ، وأنه أثناء اللعب تعارك مدرسان على فتاة تسكن فى حارة بعيدة ٠ تذكر عبد العزيز هذا وهو يمشى فى السرداب المظلم حتى وصل غرفة المدرس ٠ هى أيضا صغيرة معتمة ٠ ربما هذا هو ما يقرب المدرس الى قلبه ٠ كان يتحدثان طويلا وقد ساعد عبد العزيز ليجد عملا صغيرا فى محل كبير ٠

كان يذهب لعمله مساء كل يوم ٠ يمر بصالة البيع الباهرة الضوء ٠ الباعة مجهدون خلف الطاولات والزبائن متشككون والضوء الباهر يجهز على كل سر وكل خفاء ٠ يصعد السلم العريض المعتم الى السطوح حيث غرفة صغيرة يجلس فيها رجل عجوز وشاب صغير منهمكين فى فحص دفاتر كبيرة ٠ يجلس عبد العزيز الى طاولته يفض البريد ويقيده ٠ الرؤوس الثلاثة متقاربة وأمام الباب ظلمة المساء وغير ذلك الشكوك والهواجس ٠ اذا ما انتهى العمل نزل الى الشارع ٠ أصبحت نظراته الآن زاهدة قرفانة لا يستثيرها شىء الا ادامة التحديق أو انعام البصر ٠

ثم نقل الأخ وابن العم الصغيرين الى مدرسة قرب البلد ٠ وعليه فان عبد العزيز بقى لوحده فى طنطا ٠ ولما كانت معاملة الأرملة صاحبة الغرفة قد أصبحت لا تطاق فقد قرر أن يجد غرفة أخرى ٠ عرفه زميل دراسة على أبيه النجار وهو رجل وديع طيب أجر له غرفة فى بيت يملكه فى حارة ضيقة رطبة ٠ المنزل من طابقين ٠ ليس فى الطابق الأول سوى غرفة واحدة مظلمة يسكنها والد النجار العجوز المريض ٠ كذلك فيها مرحاض وصنبور ماء ٠ فى الدور الثانى غرفتان واحدة على الشارع يسكنها تلميذ ثانوى والأخرى داخلية بلا نوافذ أجرها عبد العزيز ٠

لم يكد يمر على عبد العزيز فى هذه الغرفة بضعة أيام ، وذات مساء وهو غارق فى النوم سمع طرقا مدويا على الباب ٠ قام مرعوبا يتخبط فى الحيطان حتى وصل الى الباب ففتحه ٠ كان صاحب البيت النجار وقد تحول الى حيوان كاسر حقود يصرخ بأعلى صوته أن نور الغرفة الأخرى لا يزال مضاء وقد تجاوزت الساعة العاشرة ٠ انه بعد عودته من القهوة الى بيته كل يوم يمر بالبيت ليتأكد من تمام اطفاء الأنوار فى الغرف المؤجرة ٠

بدءا معا يطرقان غرفة الجار المقابلة بلا جدوى ٠ اقترح عبد العزيز أن الساكن ربما فى الخارج الآن وانه سيتكلم معه عند عودته ٠ انصرف الرجل وعرف عبد العزيز أن الجار كان فى غرفته وسمع كل هذا الطرق وكل هذا الحوار ٠ وأنه بقى جامدا من الخوف لا يفتح الباب وأنه فطن بعد فترة طويلة أنه قد بلل سرواله ٠

أصبح يخشى الغرفة كما يخشى القبر ٠ يهمل واجباته المدرسية ويقضى المساء يتمشى فى الشوارع ٠ يجوب طنطا من أقصاها الى أقصاها ٠ يتلصص ليلقى نظرة على أسرة تجتمع فى غرفة فى جلسة مسائية سعيدة ٠ يتأمل أضواء النيون على واجهات بيوت هرمة مهدمة ٠ نوافذ العرض وعروض البضائع وطبقة

التراب الرقيقة التى تغطى كل شىء · حتى ينهد تعبا فيئوب · الدور الأرضى فى البيت مظلم تماما · حركة الشيخ وسعاله فى غرفته · يسرع عبد العزيز صاعدا السلم · دون أن يضىء النور يدلف الى فراشه ·

تعرف على زميل دراسته صلاح · والده محام له بيت ومكتب فى عمارة كبيرة فى ميدان الساعة · بهر عبد العزيز من المكتب وغرفة الانتظار الفاخرة · الأثاث قديم وحائل قليلا لكن فيه أصالة وثراء · مع الوقت عرف باقى البيت وعرف أن الأجزاء التى لا يراها الناس أقل أبهة وأكثر بساطة · والبيت من داخله معتم ورطب · وقد بات عبد العزيز مرة عند صديقه ، لكن صوت الشاحنات فى ميدان الساعة أفزعه من نومه · بقى صاحيا حتى الصباح ·

جمعتهم الثلاثة : صلاح وشوقى وعبد العزيز الصداقة · كانوا يقضون النهار فى المقاهى والمساهى فى دور الخيالة · كان عبد العزيز يستطعم مرارة سقوط المدينة فى نظره جزءا جزءا واكتشافه لقبحها وبؤسها رويدا رويدا · كانوا يسمون المقاهى سخرية بأسماء عواصم العالم · هذه باريس وتلك فينا وهذه أثينا · لكن الحال لم يكن يختلف كثيرا فى واحدة عن الأخرى · يأتى النادل اليونانى العجوز عابس الوجه عكر العينين يحمل صينية الشاى ويضعها على منضدة رخامية صغيرة ويمضى · القهوة بعد ذلك ليس فيها شىء سوى اعلانات عن مياه غازية على الحيطان أو مرايا كالحة أو قوائم الأسعار ·

وكانت دار العرض (مصر) تعجب عبد العزيز وخاصة مدخلها المصفح بألواح من الرخام الأحمر المصقول · كذلك فان بهو العرض وستائر الشاشة الحمراء القاتمة كانت رائعة · لكن اهمالا ريفيا وبدائية عجيبة كانت تسيطر على كل شىء · والتراب

يكسو الأرض والكراسى · لكن زيارة الدار كل آن كانت راحة من يوم طويل بين الغرفة والمدرسة والمقهى ·

بدأ عبد العزيز وصلاح فى مراسلة فتيات أوربيات · تعرف عبد العزيز على فرنسية تقيم فى ميناء صغير على المحيط الأطلسى فى الشمال كانت ترسل له دائما صور للبلد حتى أنه كان بوسعه أن يعرف شوارع المدينة واحدا واحدا · انها مدينة ساحرة صغيرة ومسكن الصديقة رائع وكل زاوية فيه مزينة ومرتبة · يلتقى هو وصلاح ، ويتحدثان طويلا عن الفتاتين ، غائبين عن قبح المقهى وبشاعة المدينة ·

نجح صلاح وشوقى فى امتحان شهادة اتمام الدراسة الثانوية والتحق الأول بهندسة الاسكندرية والثانى بحقوق القاهرة · وبقى عبد العزيز وحده فى طنطا · تلقى من صلاح رسالة تصف جمال الاسكندرية وتحدثه عن كتابته لأبيه وغضبه من كلمة وردت فى الخطاب تقول « تركت هدائم طنطا تنعى من بناها » لقد غضب الأب حتى هدد بقطع النفقات عن صلاح · لكن عبد العزيز كان يقرأ الخطاب ويتمنى أيضا أن يترك طنطا ·

وقد فعل · حمل كل متاعه وسافر الى القاهرة · المدينة الهائلة واحدة من حواضر الدنيا · ذكرياته عنها رائعة اذ يسافر اليها فى يد أبيه وينزلان عند أقاربهما فى حى الفجالة · كانت الحارة معتمة لكنها نظيفة ومعظم سكانها من اليونانيين أو الطليان · البيوت قديمة الطراز أبوابها ذات عقود · فى الأدوار الأرضية توجد شرف صغيرة تجلس فيها سيدات أجنبيات عجوزات لكنهن نظيفات أنيقات يطرزن أو يتلهين بعمل صغير آخر · يمر بهن عبد العزيز حتى يصلان الى بيت أقاربهما فى القاهرة ·

يسكنون فى واحد من هذه البيوت فى دوره الأخير · عجوز جزار متقاعد وزوجته عجوز صغير لطيفة · أساسها قديم الطراز

لكنه نظيف وثير ناعم . لا يوجد ركن الا وقد طرزت له مفرشا صغيرا . حتى السرير الشاهق العمدان زينته بضروب القماش المشغول حتى ما يشبع الواحد من تأمله . حتى قلل الماء اصطنعت لكل واحدة منها غطاء لفوهتها من قطعة قماش صغيرة مطرزة .

من شرفتهم كان عبد العزيز يرى شرفة سيدة ايطالية مملوءة بالزروع وعشش الأرانب . كانت السيدة تقوم فى البكور تعنى بزروعها وحيواناتها حتى تنتهى من عملها تجلس مرتاحة سعيدة وتشرب قهوتها على مهل ، وعبد العزيز يراقبها من الأول للآخر . كان هذا زمان وقد مات الرجل وزوجته ، ولم يفكر عبد العزيز فى حى الفجالة عندما نزل القاهرة بل قصد شبرا حيث يقيم طالب فى الجامعة تعرف عليه فى القطار فى أحد رحلاته من طنطا للبلد .

شارع شبرا فى الظهور والشمس كامنة فى عروق الأشياء سخنة باهرة صاهدة . الغبار يحرق الأنوف والضجة جنونية . الترام والحافلات والسيارات ودخان العادم . الخلق كحيوانات كاسرة مذعورة يطيرون على الأرصفة ووسط كتل الآلات . واجهات العرض والمقاهى . البيع والشراء والأكل والشرب والضحك والشتم . العداء والختل والهزيمة حتى الموت وتمزق الأشلاء على رصيف الشارع .

مال عبد العزيز دائخا فى شارع جانبى . الشارع هادىء على جانبيه عمارات شاهقة فاخرة . أمام كل واحدة يجلس بواب نوبى على دكة . سلم عبد العزيز وسأل البواب ، أشار له فدخل وصعد سلما رخاميا عريضا . يستريح كل آن . أبواب المساكن لامعة . أمام كل باب ممسحة للاقدام . وعلى اللافتات النحاسية أسماء أجنبية . حتى وصل الى الدور الأخير ، فتح بابا صغيرا يفضى

الى فراغ السطوح المنعقدة على بلاطه شمس مسلطة عمودية وغرفة صاحبه صغيرة وسط هذا الجحيم من الحر والضوء الباهر ٠

كان الطالب جالسا على مكتبه والغرفة صاهدة كفرن ٠ رحب بعبد العزيز مبتسما وهذا ما زالت عيناه عاشيتين من الضوء ٠ بقيا يتحدثان والعرق يسيل على وجهيهما٠ فى الغرفة سرير لشخص واحد من الحديد عليه فراش وسخ رث ٠ الى جانبه طاولة للكتابة وكرسى ٠ بعد ذلك لا يحتمل فراغ الغرفة شىء آخر ٠ كاد عبد العزيز يصاب بالجنون من الحر والكتمة ، لكنه يرى صبر صاحبه وابتسامة وجهه ٠ ظل متماسكا حتى مالت الشمس فخرجوا الى السطوح ٠ جاء ناس آخرون وجلسوا على كراسى حول منضدة يشربون الشاى كأنهم خارجون لتوهم من المستشفى ٠

كان عبد العزيز مصمما على ألا يثقل كثيرا على صديقه وأن يجد لنفسه غرفة ٠ سار عشرات المرات ذهابا وأوبة فى شارع شبرا الذى لا يشبهه جحيم فى الدنيا ٠ أزهقت روحه صعوبة التفاهم مع البوابين النوبيين وأذلته نظرات الاستعلاء فى عيون الخواجات سكان العمارات الشاهقة فى شبرا ٠ ورأى العجائب فى سطوح هذه العمارات وغرفها الصغيرة القابعة فى الحر حتى نجح فى الحصول على واحدة قريبة من نفق شبرا ٠

حينما فتح الباب وأغلقه وراءه كان من فرط تعبه لايرى أمامه بوضوح ٠ استخرج من متاعه فرشة طرحها على الأرض وتمدد ، أغرق فى النوم أربع ساعات كاملة ٠ فتح عيناه يتأمل ما حوله ٠ بياض جدران الغرفة ساقط وهى من الوساخة استحالت الى لون مسود كئيب ٠ السقف مبقع ساخن يتدلى منه سلك المصباح ٠ ثمة نافذة واحدة صغيرة تطل على منور فيه شبابيك دورات مياه المساكن التحتية ومطابخها ٠ تهب منه أخلاط روائح رديئة ٠ فى الشبابيك معلقة حزم البصل والثوم والمكانس ٠ أحس عبد العزيز

بالقهر ، لكنه راض النفس على الرضاء بما كان • تدبر لنفسه سريرا وطاولة للكتابة وكرسيا • كان يجد فى غرفته ملجأ اذا ما أرعبته القاهرة •

فتح الباب وخرج • ممر صغير ضيق طويل بين صفين من الغرف مشى فيه حذرا متخوفا حتى وجد فى نهايته صنبور مياه ومرحاض • من الناحية الأخرى يسير هذا الممر حتى الباب المفضى الى السلم • فى الشق الآخر من السطوح صفان آخران من الغرف وعدة الجميع ستون غرفة لكل مجموعة صنبور ومرحاض • والسكان أصناف من الطلاب وصغار الموظفين والبائعين الجوالين والعمال وصغار تجار المخدرات • عاش عبد العزيز بينهم مرعوبا حتى ألفهم وعرف أنهم ضعاف كالقش • لكنهم أيضا ينقضون كالقطاط بلا رحمة ويخمشون بوحشية • الأكثر قربا لقلبه كانت بنت نوبية لها طفلة صغيرة وهى أيضا حامل • كانت تجلس طول النهار فى الممر تتنقل مع الظل • كانت تنام مع كل من يريد مقابل خمسة قروش • تترك طفلتها أمام الباب • تبقى الطفلة صامتة وتعرف أن أمها ستعود حالا • لكن عبد العزيز كان يخشى سيدة أخرى تطلى وجهها وتزجج حواجبها وتتأنق وتدخن • كان يحكى عنها أنها قوادة وقد رآها عبد العزيز كثيرا فى محل حلويات فى شارع عماد الدين تجلس ساكنة تدخن •

وجد عبد العزيز عملا فى محل سلامة على الحلوانى أول شارع شبرا كمحصل • كانت صالة البيع الصغيرة نظيفة أنيقة والرفوف محملة بعلب الحلوى الملفوفة فى الأوراق الشفيفة الملونة والمذهبة • خلف مكتب عبد العزيز كان المعمل غرفة سوداء الجدران من الدخان فى ركنها الموقد عليه اناء نحاس هائل لصهر الحلوى وفى وسط الغرفة طاولة كبيرة لفرد العجين وتقطيعه • كان العمل يدور طول النهار والعمال لا يسمح لهم بالظهور فى صالة البيع •

لهم باب صغير خاص بهم فى شارع التوفيقية · وبالليل ينامون فوق سقف خشبى مقام فوق الجزء الذى فيه مكتب المحصل ·

كان المحل مفتوحا ليلا ونهارا وعبد العزيز يعمل فيه بالليل · فى الهزيع الأخير تصمت المدينة الا من شاحنة تمر صاخبة أو عربة تمرق متسللة ثم يعود السكون · تخرج القطاط والكلاب تنبش فى اكوام القمامة · يجلس عبد العزيز مع العمال على الكراسى أمام الدكان فى الأركان البعيدة عربات بائعى البطاطا يخرج منها الدخان · الكلوبات ناعسة خلف زجاج عربات بائعى الحلويات · يمر عساكر الدرك مرهقين يتشممون من أجل سيجارة أو كوبة شاى · تأتى من حين الى حين مومس مرهقة مختلط طلاء وجهها ، تشترى قطعة حلوى · يجذبها العمال من ذراعها لتنام معهم مجانا ترفض بشدة وتمضى قرفانة · فى الصبح يأتى البديل ويعود عبد العزيز محطوما لغرفته ·

أخيرا وجد عنوان شوقى وعرف أنه يسكن مع أسرته التى انتقلت للقاهرة · حارة صغيرة متربة تتفرع من الشارع الرئيسى · المسكن الصغير أخذ ملامح مسكن طنطا تماما · غرفة الجلوس بكنباتها وبساطها من الصوف البلدى وصورة الأب على الحائط · كأنما المسكن انعوج بتأثير ضغط يقع عليه من الخارج تتقارب الحيطان وينحرف وضع الكنبات · فيما عدا ذلك كل شىء كما هو · فقط ذلك الضيق على وجه الأم العجوز من صغر السكن لكنها ما زالت تكافح من أجل أن تبقى الأشياء نظيفة ·

ارتدى عبد العزيز حلته الوحيدة الحسنة المظهر وعقد رباط عنقه ، وذهب يزور عمه فى الدقى · يقيم فى مسكن من خمسة غرف لم ير منه الا غرفة المائدة وغرفة المعيشة · أما غرفة الاستقبال وغرف النوم فلم يتح له أن يراها أبدا · جلسوا يتحدثون على كراس أنيقة ومن السقف تتدلى ثريا من النحاس المنقوش وعلى

الحيطان صور والد وأعمام الزوجة وصورة زفافها مع العم ٠ البيت جميل ٠ لكن ثمة احساس عند عبد العزيز أن العم وزوجته خائفين على حاجاتهم ويتمنون فعلا لو أنه خرج لتوه وقد كان عليه أن يقوم ٠

لكن سكنه فى تلك الغرفة على السطوح وعمله عند سلامة على كان يشعره بعمق بعدم انتمائه لشىء ثابت ٠ كان يبحث عن بيت يكون من حقه حتى أن يزوره فقط من آن لآن ٠ ذهب الى شبرا الخيمة حيث يسكن خاله الأوسط مع زوجته بعد أن رزقا بعيال ٠ كان يقيم فى الطابق الثانى من منزل ريفى عبارة عن غرفة واحدة أمامها باحة مسقوفة فيها مرحاض وزير ٠ فى الغرفة كان السرير والدولاب الذين يعرفهما عبد العزيز بعد أن أصبحا فى حالة محزنة من التلف والرثاثة ٠

كتب صلاح لعبد العزيز أنه قادم لزيارة القاهرة ٠ ذهب هذا ليقابله فى منزل والدته فى الدقى ٠ الوالدة ثرية بنت بيتا من أربع طوابق فى شارع هادىء ٠ نقلوا الى المسكن الجديد دون أن يكتمل تجهيزه ، فما زالت الأرضية لم تبلط والجدران لم تبيض ٠ لكن كانت الفرحة بالبيت الجديد محسوسة عند الجميع ٠ وكان من الممكن تخيل جمال المسكن بعد أن يتم ٠

سرعان ما سافر صلاح ولم يكن لعبد العزيز فى القاهرة سوى شوقى ٠ كانا يخرجان معا كثيرا يترددان على دور العرض والمسارح والمقاهى أو يزوران المعارف ٠ كانت بعض هذه الأبنية تسحر عبد العزيز ٠ كانت تذهله الفخامة والاضاءة والأثاث ٠ يبقى مبهورا لوقت طويل ٠ ثم يئويان هو وشوقى ٠ يجلسان فى غرفة الجلوس المعهودة ويحل بهما الصمت والكآبة ٠

يتفكر عبد العزيز كيف تفقد هذه الفخامة سحرها على نفسه وشيكا · شىء ما فى جمالها غير انسانى أو شائه بشكل ما · لكنه لا يستطيع أن يضبط الشىء المفقود · كل ما فى الأمر هو ذلك المحل الذى يملأ داخله ذلك الاحساس المروع بعدم التآلف مع هذه الأماكن لا شىء يأخذه ويوحده مع غرفة ما حتى ينسى نفسه ويجد لساعة سعادة عميقة · ذلك الصراع بين عينيه وبين المرئيات · ذلك القبح الذى يصدمه على السطوح أو يتسلل الى ردهة من الأركان · يجد أن شوقى جالس على الكنبة صامتا شاردا · ربما هو أيضا يكابد ما أكابده · نحن فرائس هذه الحيطان المبقعة ·

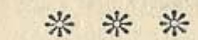
يعود من المنيل الى شبرا فى آخر حافلة · يصعد درجات سلم العمارة حتى السطوح · يمر بين صفى الغرف فى الممر الضيق الطويل · أنفاس وهمهمات غامضة وراء الأبواب الرقيقة · ماذا يجترح الناس تحت هذه السقوف · جرائم صغيرة أو أحلام داعرة قد يكون ، لكنه فى كل الأحوال انتحار بطىء ·

يأوى الى غرفته ويتمدد على سريره · يهدهد نفسه الى النوم بتأليف الحكايات · عن بيت صغير له حديقة · يرتب الأشياء مئة مرة من جديد ولا يفلح فى الوصول الى الشىء المقصود يصيبه نوع من العصاب والارهاق · قد تكون الحياة رديئة · لكن أن يكون ثمة أيضا العجز عن الحلم ، ان ذلك يكون كثيرا ، يكون كثيرا جدا ·

صحا قرب الظهر على نقرات على بابه · واذا فتح وجد السيدة القوادة واقفة أمام بابه تطلب فى نوع من الأمر لكن بعشم ومودة أن يذهب معها · مشى خلفها بين صفى الغرف · حرير ثوبها وكعبها النظيف فى شبشبها متناقضان مع كلاحة الحيطان ووساخة الأرضية · قادته حتى باب غرفتها · تدق عليه حدوة حصان صغيرة وضفيرة من سنابل القمح ·

فتح الباب ٠ كان أبوه جالسا فى صدر الغرفة ٠ يجلس على أريكة لطيفة مكسوة بقماش مورد تمتزج فيه الأدمة بالمخضار مزاجا حسنا ٠ خلفه شباك عليه ستائر تجانس فى اللون كساء الكنبة ٠ وعلى الحيطان أطباق من الخزف المرسوم ثم لوحة « القارئة » للرسام على ورق رخيص ٠ والسرير وثير يحس الواحد طراوته على البعد ٠ الأب يرتكن على نمرقة تشق الكنبة ويشرب القهوة من فنجان أنيق ٠

قاما معا ٠ عبد العزيز وأبوه ٠ لقد بحث الأب عن ابنه فى كل مكان حتى اهتدى اليه ٠ تفكر عبد العزيز ما الذى يمكن عمله الآن ٠ لم يكن يريد أن يعود للبلد ٠ أخذ يد أبيه فى يده ٠ كان يعرف أنه هو الآخر ليس سعيدا بالعودة ، لكن لم يكن ثمة مكان آخر لهما كليهما ٠



رغم مرور خمسة وعشرين عاما ، الا أنه لا ينسى هذه اللحظة حتى الان أبدا . تعاوده بصفائها واشراقها ونسائمها . كان ضحى رائعا فى سبتمبر حينما وقف عبد العزيز فى فناء محطة سيدى جابر يشرف على ذلك الخلاء الفسيح الذى يحده شارع الحرية المشجر ثم قطار المدينة الكهربائى . وقف عبد العزيز هنيهة ومتاعه فى يده ، يغمض عينيه ويترك نفسه لهواء الاسكندرية وروائحه . ان هذه مدينة نظيفة ساحرة .

ركب القطار حتى « جليم » حيث يقيم صلاح فى شارع مصطفى ماهر . وهو شارع فيه فيلات ذات حدائق جميلة . سأل عبد العزيز نفسه : فى أى من هذى يقيم صلاح ، ثم مضى يبحث عن رقم البيت حتى وجده . الحديقة غير معنى بها تماما والبيت من طابق واحد ساقط البياض . لكن ثمة جمال آسر يلف المشهد كله . البيوت هنا فى هواء الاسكندرية اذ تهرم تبلى لكنها لا تتسخ أو تسود من التراب مثل الناس الصالحين الذين يكتسبون بالشيخوخة جمالا ونورانية .

فتح عبد العزيز باب الحديقة المتداعى برفق وتقدم الى الشرفة ذات العمودين الكبيرين . صعد الدرجات القليلات وضغط

الجرس · البلاطات تحت قدميه ناصعة · مكان سقوط البياض من الجدران · تجمعت بللورات ملحية · يتصور عبد العزيز انه فى قلب لوحة ايطالية لمنظر ساحلى · فتحت الباب سيدة أجنبية عجوزة وعندما كلمها وجد صلاح خارجا من غرفته · فسيحة بابها على الشرفة ولها بعد ذلك شباك على الناحية البحرية وشباكان آخران على الناحية الغربية وكل الشبابيك مطلة على الحديقة التى تحيط بالبيت الصغير ·

فى الغرفة سريران وطاولة للكتابة وكرسى · فى الجانب الآخر منضدة واطئة حولها كرسيان كبيران ثم دولاب ذو مرآة كبيرة · قطع سجاجيد تحت طاولة الكتابة وكراسى الجلوس وبين السريرين وأمام الدولاب · ما عدا ذلك طلاء خشب الأرضية ناحل · كذلك فان الأثاث قديم ورث ، لكنه نظيف معنى به وعليه لمحة من الأصالة والغرابة · ان جو الغرفة مدهش ، تعمق الاحساس به لوحات الجدران التى تصور كنائس قوطية قديمة · وذلك الملاك الطائر الذى ينفخ فى نفير عند رأس السريرين ·

أبدى عبد العزيز لصلاح انشغاله بأمر سكنه ، لكن صلاح قال ان هذا أمر لا يجب الانشغال به مطلقا ، فاليوم للاحتفال وغدا لما عدا ذلك من أمور ، ومع ذلك فاذا كان الأمر يشغل البال فان صلاح سوف يريه هذا المساء السكن الذى سيقيم فيه فى الاسكندرية · ذهل عبد العزيز وكاد يبكى فرحا · لكن صلاح كان قد أعد كل شىء ، أوراق التحاق عبد العزيز بكلية الحقوق بعد أن حصل على التوجيهى ثم دبر له مسكنا · أسرعا يعدان نفسيهما للخروج · من الصالة الفسيحة المفروشة كلها أثاثا قديما حسنا مشى عبد العزيز الى دورة المياه خلف صلاح · يمشيان مؤدبين صامتين حذرين واذا تحدثا فهمسا ·

نزلا من القطار فى محطة الرمل · فتن عبد العزيز بأضواء الميدان وأناقته · يوجد سلام ما وشاعرية ورقة ، جو حلمى · مالوا

يمينا . عمارة كبيرة فى أسفلها محل أتينيوس الحلوانى . موائد رخامية مستديرة يجلس اليها على الرصيف أمام المحل سيدات حسنات ورجال متأنقون . موائد أخرى خلف الزجاج . جوف المحل شاسع مضىء ، والندل يتحركون بالصوانى على الأيدى فى بذلات أنيقة كأنهم يرقصون . توجد صناديق زجاجية تعرض أكوام من الفطائر والحلوى .

دخلوا باب العمارة . نوبى عجوز هائل الحجم يجلس على أريكة . دخلوا مصعدا قديما من الزجاج وخشب الموجنة اللامع فى داخله مرايا ودكة للجلوس . صعدوا الى الدور الرابع حيث فندق « أيكى » . فى الاستقبال تجلس سيدة أجنبية مبتسمة نظيفة الوجه واليدين . ردهة الفندق فيها أركان فى كل منضدة حولها كراسى كبيرة مريحة وحامل فيه مصباح عليه كمة مرسومة تحصر الضوء فى دائرة على المنضدة . وعليه ، فنور الردهة هادىء ، وهى مفروشة بسجاد سابغ والحيطان مغطاة بورق عليه نقوش دقيقة ومعلقة عليها لوحات من الريف الانجليزى ، وصور لسفن الرحلات السياحية لشركة كوكسى . أخذوا عبد العزيز لغرفته . واسعة فيها سريران كل ملحق به منضدة للكتابة وكرسى . فيهـا الى ذلك صيوانان للملابس وحوضان للغسيل . ابتسم عبد العزيز حينما رأى الملاك الطائر ذا النفير على الحائط عند رأس السريرين وسفينة أخرى لكوكسى على الحائط . لكن الأرض عليها بساط والغرفة نظيفة وثيرة . الشرفة تطل على شارع جانبى . فى المواجهة عمارة هائلة فاخرة يبدو أن سكانها أجانب .

خرجوا مرة أخرى . ثمة ممر طويل فيه صف من الغرف . خرجوا الى الردهة ثم الى سيدة الاستقبال . قيد عبد العزيز اسمه . ان الجامعة تدفع جزءا كبيرا من الايجار كاعانة للطلبة المغتربين . وشريك عبد العزيز فى الغرفة زميل دراسة قديم . الأمور كلها اذن على ما يرام . وسوف يبيت عبد العزيز ليلتـه

الأولى فى الاسكندرية فى سرير يخصه • الآن نزلوا مرة أخرى الى محطة الرمل • وهو مشوق أن يترك نفسه فى حضن هذا البلد الرقيق الحبيب •

ولقد بقيت هذه البقعة فى قلب عبد العزيز طول عمره • محطة الرمل وشارع صفية زغلول الذى يرتفع هنيهة ثم يعود ينحدر مؤديا الى شارع السلطان حسين • ومن محطة الرمل مرة أخرى شارع سعد زغلول المؤدى الى ميدان المنشية • تلك كانت جولة عبد العزيز المسائية • قهوة السلطان حسين • محل ايليت • سينما مترو وسينما راديو • مطعم فول أدينيب الذى يملكه رجل كردى نظيف حازم له ذوق • تافرنا وأتنيوس • وبعد أن تشبع روحه من أناقة وعطر الاسكندرية يعود الى الفندق •

الطلبة يخرجون من غرفهم الى الردهة فى الأماسى • يجلسون هادئين يتسامرون أو يقرأون جرائدهم أو يسمعون الموسيقى مرتدين ثيابهم كاملة • كانت المدبرة اليونانية تأتى وتجلس اليهم تتحدث عربية لطيفة أو فرنسية مع من يستطيع • وكان عبد العزيز يجد شريك غرفته حسن المعشر • وكان الجميع يتغدون فى الجامعة ويتعشون فى غرفهم عشاء خفيفا •

ولأمر ما دون سند من الحقيقة بدأ صاحب اللوكاندة يلوم الطلبة على اساءة استعمال الأثاث • ثم بدأ يختلق المناسبات للشجار مع المدبرة ولومها بصوت عال أمام الجميع • ثم جاء بقريب له كان قد خرج للتو من السجن وعهد اليه برعاية الفندق مع السيدة اليونانية • وذات صباح وجد الطلبة أن الردهة عارية تماما من الأثاث أو السجاد • فقط فى السقف لمبة عارية باهرة الضوء وجوار الحيطان صفوف من الكراسى المعدنية • كذلك أوقف جريان الماء الدافىء فى الحمام ووضع موقد كيروسين تحت أمر من يريد أن يستحم •

أصابت الطلبة حالة من الهياج وكثر تدخل مندوب شئون الطلاب دون جدوى فصاحب الفندق مصمم على موقفه · أصبحت السيدة اليونانية عصبية سريعة الهياج · كان زوجها يأتى لزيارتها ، طويلا هائل الحجم متحدب الكتفين جلف التكوين وابنته تأتى معه كأنها نسخة أخرى منه · أصبحت السيدة تحكى للجميع أن لها عشيقا مصريا وسيما · اعتاد الطلبة على تقبيلها فى فمها · وضحك الجميع عندما علموا أنها تنام مع طالب العلوم الأسمر الطويل ، لكن صاحب الفندق طردها ·

أصبح الطلبة الآن يخرجون الى الردهة ويتمشون فيها بالمنامات والشباشب · انتشرت بينهم تقليعة أكل فول التدميس الذى يملأون به جيوبهم ويبصقون القشر فى كل مكان · شاعت بينهم أنواع من المزاح العنيف ، مثل جذب سراويل المنامات بسرعة والى أسفل ، فاذا بالواحد يجد نفسه عاريا تتدلى عورته متأرجحة وهم حوله يضحكون منه · لكن لما احتاط كل واحد بربط سروال منامته بالدوبارة تحولوا الى لعبة أخرى مؤداها أن ينقض أربع طلاب على طالبين · يمسك كل اثنين من الهاجمين واحدا بينهما ، يمسكه كل واحد من معصم يده ومعصم رجله · ثم يطوح الأربعة الطالبين المحمولين يمينا وشمالا لترتطم مؤخرة الاثنين بعضهما ببعض رطما عنيفا وسط ضحك وحشى صاخب · ثم تطورت اللعبة فأصبح شرطها أن تكون المؤخرات عارية · ثم حدث أنهم أمسكوا مرة بطالب سمين أبيض وعروا مؤخرته وطلبوا من طالب العلوم الأسمر الطويل أن يولج ايره فيه · تقدم هذا منتصبا تماما الى مؤخرة الطالب الكبيرة البيضاء · فجأة انطلق صراخ المعتدى عليه مثل حيوان برى يحتضر · تركه الطلاب وجروا الى غرفهم مذعورين شاحبين ·

عرف عبد العزيز أن بقاءه فى الفندق يهدد النتائج التى وصل اليها فى الفصل الأول · كان لابد أن يبحث عن سكن آخر · تعرف

على طالب حقوق ريفى مثله رحب بسكنه معه • كانت شقة من غرفتين فى شارع الكورنيش • الردهة خلف الباب صغيرة لا يكاد الواحد فيها يستطيع أن يستدير • تفتح فيها غرفتان ، تكاد غرفة عبد العزيز وصاحبه لا تتســـع لسريريهما الصغيرين وطاولتى كتابتهما • فيها شباك واحد على المنور والمطبخ بعد ذلك شديد الصغر •

مع أن الشقة جديدة الا أنها صغيرة ومعتمة ومقبضة تثقل على روح عبد العزيز • بدا الخوف يتسلل الى نفســـه وبدأت تداهمه الاحساسات القديمة • فى الغرفة الأخرى يقيــم موظف مطلق احتفظ بغرفة نوم عرسه •• سرير ودولاب هائلين ، فرش وستائر حريرية مطرزة • فى وقت متأخر من كل مساء تأتيه مومس تبيت معه وتنصرف فى الصباح • بعد ذلك يقوم هو يتوضأ ويصلى بصوت عالى • يقيم بينه وبين عبد العزيز وصاحبه حائلا من البرود واللامبالاة يستحيل اختراقه •

عرف عبد العزيز بعد ذلك أن العمارة الصغيرة يسكن معظم شققها راقصات فى ملاهى شارع الكورنيش • كان يعانى حالة غامضة من الخوف لا تبارحه • فى وقت متأخر من كل مساء ، بل قرب الفجر ، كن يعدن • كان يتصنت عليهن وقد أطفأ نور غرفته • يحاول أن يستكشف كيف تبدو مساكنهن • يلقين بأعقاب السجائر من المنور ، واذا أحسسن به بصقن • قرر عبد العزيز أن يترك السكن •

انتقل الى غرفة فى شقة سيدة لبنانية فى شارع الكورنيش • الردهة معتمة تماما ، لكنها اذا يضـــاء النور نظيفة لامعـــة فيها طاقم من كنبـــة وكرسيين كبيرين فاخرين من الجلـــد ولوحة من النحاس على الجدار ومنضدة واطئة من المرمر • من الردهة يمضى ممر ضيق الى الغرف والمطبخ والحمام ، السيدة شديدة البياض

شديدة النحول · ليست عجوزة جدا لكن جلدها هرم ووجهها شائخ وعيونها غائرة ·

كانت غرفة عبد العزيز صغيرة ، لكنها شديدة النظافة ، استراح اليها · كانت السيدة اذا زارته قببت كفها لتنفض فيه سيجارتها حتى لا يسقط التراب على الأرضية · واذا عاد عبد العزيز من الخارج متأخرا فى المساء فتح الباب بكل هدوء ، ومع ذلك يجد السيدة قد قفزت انتصبت واقفة فى الردهة عارية الا من قميص نومها الخفيف ، منكوشة الشعر تولول محذرة من التأخر فى السهر وضرره على الصحة · واذا كان لديها ساعة فراغ جاءت لغرفة عبد العزيز تحكى له بانفعال يكاد يصل للبكاء عن محافظة اللبنانيين على الشرف ، وأن طفلة حشرت وسادة تحت ثوبها تلعب لعبة السيدة الحامل ، فقتلها أبوها حتى لا تتكرر اللعبة جدا اذا كبرت البنت ·

بالتدريج تحقق عبد العزيز من أن الشقة باردة · بل انها فى الليل تغدو كالثلاجة ثم انها معتمة وكئيبة وهو لا يجرؤ على دعوة أحد اليه · كذلك لا تطاوعه نفسه على استخدام أشياء لمستها هذه السيدة ولا الجلوس على المرحاض حيث تجلس · ثم انه عمليا لم يكن مسموح له بالجلوس فى الصالة ، بل يبقى دائما حبيس غرفته · أحس بأنه لابد أن يجد له سكنا آخر ·

انتهى به المطاف الى شارع « طيبة » · يتألف أكثره من عمارات صغيرة جديدة كلها تقريبا شقق للطلاب الغرباء · بعد ذلك توجد بيوت قديمة يسكنها اسكندرانية فقراء أو هرمين · استأجر عبد العزيز غرفة فى شقة ، صاحبتها امرأة اسكندرانية سمراء نحيلة ، معها ابنتها ذات ملامح جذب آسيوية فذة الجمال لا تقاوم · بعد أن تم تأجير كل الغرف مضت السيدة بابنتها · عرف عبد العزيز أن جميع الطلاب استأجروا الغرف من أجل هذه البنت ، ولما مضت

وجدوا أن الشقة عارية تماما ليس فيها سوى أسرة صغيرة حديدية وأصونة قديمة جرباء للملابس . فى الردهة طاولة قديمة وبضعة كراسى . أصبحت الحياة فى الشقة بدائية وصخابة .

تقارب الطلاب القادمين من الريف والساكنين فى مختلف بيوت شارع طيبة وتم بينهم التعارف والتزاور . أصبحت جماعتهم معروفة لبوابى هذه العمارات الصغيرة الذين يضع كل منهم أمامه صندوق مثلجات ويمارس أيضا القوادة . بعد ذلك أصبحت جماعة المومسات معروفة لجماعة الطلبة وأصبح شارع طيبة ببيوته الصغيرة يضج بدنيا قوامها طلاب ريفيون ومومسات وشقق عارية وأكل رخيص وكحول ومثلجات . يخرج عبد العزيز من غرفته الى حمام قذر ، الى مطبخ أسود الحيطان من سناج مواقد الكيروسين ويجد المومسات جالسات يدخن فى الصالة .. ناحلات صفراوات فقيرات مختلطات الطلاء منكوشات الشعر .

بين آن وآخر كان عبد العزيز يزور أقارب له فى المنشية . عمائر كبيرة فقيرة . يصعد السلم العريض ويطرق على باب المسكن الضخم . الباب يفتح على ممر طويل على جانبيه صفان من الغرف . فى واحدة منها يسكن أقاربه . سرير كبير فى الركن عند أقدامه حصيرة وجنب الحائط كنبة عربية . فى الركن الآخر طاولة للطبيخ فوقها رفوف فيها الأطباق . كان الرجل قليل الحجم وكذلك الزوجة والعيال والغرفة شاهقة الجدران ومتاعهم قليل فى الأركان . وخارج الغرفة فى ذلك الممر الطويل تصايح النسوة السمينات ساكنات الغرف الأخرى وقرقعة الأوانى وقرقرة الماء فى الحمام . كان عبد العزيز يعود من عندهم كل مرة مكتئبا . يترك نفسه للاسكندرية .

متقوسة حول البحر . زرقة الماء ورمادية الشاطىء . والسماء تطفو على صفائها حجوم السحب الكبرى . معلقة هكذا منذ الأزل

تضفى على هذا الجمال المهابة والاحساس بالخطر الغامض · واذا يتقدم الغسق تضاء مصابيح شارع الكورنيش مرة على البحر ومرة فى الماء · أفق من الليل والضوء وشبابيك العمائر الكبيرة · جمال ينسحق قلبه تحت فيضه العارم « لماذا نسقط نحن كالنخالة كالفتات ، لماذا نرمى فرائس للحيطان الجرباء والقبح ، أى قوة ضارية وحشية تعطل قدرتنا على صنع الجمال لأنفسنا ، أى قدر يحسبنا فى هذه الأحقاق بلا مفر » ·

مشى على طول الكورنيش حتى السلسلة · هناك يقيم صلاح فى الطابق التاسع من عمارة شاهقة · صعد اليه · شقة صغيرة من غرفتين لكن شرفتها فاتنة · جلس على كرسى فيها وتحته امتداد الاسكندرية البديع ·

صلاح يتركه فى مثل هذه اللحظات حتى يعود وحده · غرفة صلاح بسيطة ليس فيها الا سريره ولوحة رسمه · الشقة كلها أيضا صغيرة وأثاثها بسيط ، وفى الغرفة الأخرى تقيم الأخت · لكن على وجه صلاح سلام وسعادة · ان على عبد العزيز أن يجد هو أيضا مسكنا صغيرا ويحضر أخته من البلد لتقيم معه · ان ذلك الآن ممكن ، وبعد عدوان ١٩٥٦ يهاجر كثير من الخواجات ، والشقق ممكنة ، والأثاث القديم رخيص ·

وجد شقة من غرفة واحدة فى الدور الأرضى لعمارة صغيرة · الردهة أمام الغرفة معتمة والغرفة بها نافذة واحدة على المنور · يوجد الى ذلك حمام صغير ومطبخ صغير · كان عبد العزيز سعيدا بسكنه الجديد غاية السعادة · وضع طاولة الكتابة وكرسيين فى الصالة · علق على الحائط تقويما به لوحات عالمية وفرش على الأرض بساطا من الصوف البلدى · كان يقضى معظم وقته فى البيت وكان كثير من الأصدقاء يزورونه ويجدون عنده راحة وكان هذا يسعده ·

فى العمارة أربع شقق غير شقته . أسرتان يونانيتان وأسرتان مصريتان والبيت على العموم هادىء ونظيف . رغم أن عتامة الشقة وانحباسها عن الشارع كان يثقل على روح عبد العزيز وأخته ، الا أنه كان سعيدا راضيا وكان يقضى معظم وقته فى البيت . حتى فتح دكان نجارة خلف جدار ردهة الشقة يعمل من الصباح حتى وقت متأخر فى المساء . كان الاستمرار مستحيلا لكن الخروج أيضا كان مستحيلا .

رحل اليونان وأصبح فى وسع عبد العزيز أن ينقل لشقة فى الدور الأول . فوق دكان النجار الآن غرفة أخرى لها شرفة على الشارع يضع فيها عبد العزيز سريره ومكتبه . أخته فى الغرفة الأخرى . الردهة الآن عارية تماما وايجار الشقة أكثر من طاقته ، لكنه يأمل أن يؤجرها فى الصيف وأن يستكمل تأثيثها . يرى جدرانها العارية وقلة الأثاث فيها ويمنى النفس بأن تكون يوما ما جميلة . يجلس فى الشرفة ويقرأ جريدته فى الصبح ثم يسرع الى الجامعة . وعندما يعود يصعد السلم ، يفتح باب مسكنه يجد رائحة الطبيخ ويجد أخته . البيت عار لكنه لا زال يأمل .

من مجلسه فى الشرفة كان يرى مسكن جيرانه فى الجهة المقابلة من الشارع . عمارة من الطراز القديم يبدو أن المسكن شاسع الشرف حائلة ، على أبوابها ستائر من المخمل القاتم الحمرة . كان يرى من خلال هذه الأبواب أحيانا غرفة السفرة والصالون . شىء رائع وذوق بديع . كان شيئا كالحلم لكنه يعرف أن ذلك حلم بعيد . كتب الى خاله الأكبر الذى كان الآن فى بنى سويف يعرض عليه أن يصيف عنده ، وقد صح ما توقع ، فقد تعرف الخال على الأسرة الجارة وعرف عبد العزيز عليهم .

قالت السيدة صاحبة البيت لعبد العزيز أنها لم تكن لتكون أسعد لو أنها تزوجت مليونيرا . زوجها يعمل فى شركة الملح

والصودا · وبعد الظهر فى مكتب محاسبة حتى منتصف الليل ، وأنها وهو يكرسان كل جهدهما للبيت · والبيت رائع · فى الصالة ركن فيه ساعة قديمة كبيرة واقفة جنب الحائط ، فى الركن الآخر طاقم من أربع كراسى حول منضدة من المرمر · على الحيطان رفوف محملة بتحف صغيرة وهنا وهنا تعلق أطباق خزفية مرسومة · لكن الأشياء كلها تتعاون فى وحدة ذات وقع مؤثر ، وخلفها ورق الحيطان به رسوم دقيقة عقيقية على أرضية شاحبة الصفرة · فى الردهة بابان كبيران مفتوحان يؤديان للسفرة والصالون كأنهمـا عمق لهذا الحسن الموجود فى الردهة · وهذا الامتداد كله مفروش بقطع متناثرة غالية من السجاد ·

كانت السيدة تمضى أمام عبد العزيز فى معطفها المنزلى الأحمر القاتم عبر الردهة ثم عبر غرفة الاستقبال الى غرفة خلفية صغيرة ، فيها كنبتان عربيتان بينهما منضدة صغيرة ، وعلى الحيطان آيات قرآنية · تلك هى غرفة المعيشة · وهنا تجلس الأسرة متخففة مساء الخميس والجمعة حينما يكون الأب فى البيت · يضيفون عبد العزيز ويكرمونه ، وهو يحلم أنه لو اقترن بامرأة مثل هذه لكان له هذا البيت ·· هل يخطب ابنتهما ؟ كان حذرا لا يريد أن يقدم الا بعد أن يتدبر الأمر طويلا ·

انتقلت الى البيت سيدة مترملة يعمل ابنها فى بنك ، وأولادها الآخـرون فى المدارس · يبـدو أن السيدة لم تكن قد شبعت من الحياة ، تطلى وجهها وتقف طول النهار فى الشرفة · عبد العزيز يتجنبها خاصة من أجل جيرانه · انتقل الى البيت أيضا ثلاثة طلاب فى شقة أخرى · وقد حدث أن عاكسوا من شباك المنور سيدة فى عمارة ملاصقة ، اتضح أن زوجها يدير فى نفس مسكنه ورشة لصناعة الملابس · أتى مع عماله بالمقصات يريدون الفتك بالطالب المستهتر · عموما فان البيت فقد ذلك الجو الهـادىء والبواب أهمل تنظيفه وأصبح يتكلم مع الناس باستهانة · لكن

عبد العزيز بقى متمسكا بأسلوبه القديم ، يستر كل ما يجرى عن جيرانه · حتى جاءه قريب له ذات مساء ينبؤه أن الأب سقط مريضا ·

سافر هو وأخته الى البلد · حينما دخل الدار كبس جوها على روحه · تصور أن هذا هو الذى صرع الأب · يرقد على سريره مغمضا · أسلم آخر محاولة للصراع · كان على عبد العزيز أن يترك أخته فى البلد ، وأن يقلل مصاريفه الى أقصى حد · لم يرد أن يخبر جيران الاسكندرية جمع متاعه على عربة يد فى قلب الليل ومشى بها الى حى « غربال » الحى العمالى الفقير فى شمالى الاسكندرية ·

كان يقول لنفسه وهو يدفع العربة مســاعدا الولد النحيل الذى يجرها انه اضطر الى هذا · نعم ، فبعد مرض الأب لابد من تقليل النفقات الى أقصى حد · كان يقول لنفسه هذا ، لكن صوتا آخر فى أعماقه خافت متروك لكنه ملحاح معافر يرفض حججــه ويتهمه بالفرار المذعور فى منتصف الليل · ان خوفه حوله الى كتلة مصمتة غير قادرة على الطفو · بل أنه يركن الى الأسهل وهو الرسوب فى القاع والهزيمة · بل ان ثمة رغبة دفينة فى اذلال نفسه واهانتها وتمريغها فى القبح والرثاثة والابتذال · ولذلك فان فى أعماقه سرور خفى بالانتقال الى حى غربال ·

كان الاتهام جارحا ومصيبا حتى أن عبد العزيز أحس بدموع قلبه الدافئة · تفكر فى كل الأيام التى مضت ، كل السقوف الشائهة المبقعة التى نام تحتها · كل الجدران الحائلة الكالحة التى أحدقت بفراشه ، كل القبح والتشوه والغثاثة التى قتلت فيه كل طموح ، التى حببت له المذلة والرغبة العميقة فى جــرح الذات وســبها واهانتها · هل يمكن أن يخرج ، أن تولد فى نفسه رغبة جديدة كالحياة · رغبة فى الجمال والاحساس به والقدرة على صنعه ؟

هكذا كان يتفكر وهو يدفع العربة فى أوحال شارع غبريال فى حى غربال شمالى الاسكندرية ·

وشارع غبريال هذا سيء الرصف مليء بالحفر دائما غارق فى الماء ، تمخر فيه الحافلات والشاحنات صخابة تطلق سحبا من دخان العادم · على الجانبين صفان من بيوت جديدة فى معظمها لكنها وسخة مسودة الواجهات · فى الأدوار السفلية دكاكين صغيرة تتكدس فيها بضائع رخيصة · وعلى الرصيفين قطاران لا ينقطعان من زوجات عمال يحملن السلال فى الطريق من أو الى السوق · رثات الثياب مجهدات الوجوه · كذلك عمال متعطلون أو صبية لا يجدون ما يعملون · من شارع غبريال تتفرع حارة ضيقة على جانبيها بيوت صغيرة من دور واحد فى معظمها جديدة لكنها رخيصة ومبنية على عجل · فى واحد من هذه البيوت أقام عبد العزيز مع ابن عمه الذى سكن معه طفلا فى طنطا · هو الآن عامل فى شركة بلاستيك فى حى غربال ·

البيت عبارة عن غرفتين على الحارة يقيم عبد العزيز وابن عمه فى واحدة ، وتقيم صاحبة البيت مع أولادها الستة فى الغرفة المجاورة · فى الغرفتين شباكان صغيران على الشارع · أما البابان فيفتحان على فراغ تحده من جهاته الثلاثة جدران البيوت المجاورة · فى أقصى هذا الفراغ مرحاض الى جواره صنبور ماء بلا حوض ، حوله دائما بركة صغيرة تحوم حولها سحب البعوض وواحدات النحل والزنابير · كذلك يوجد فرن صغير الى جواره كوم من الزبالة يستخدم كوقود له ·

كان عبد العزيز يتمدد طول النهار على سريره ، يحدق فى السقف والجدران الناصعة البياض الباهرة بالضوء · أو يتطلع من النافذة أو يضع كرسيه أمام الغرفة وكتابه على ركبتيه ، يتأمل الرصاص والصنبور والفرن شاردا غير قادر على تركيز ذهنه

فيما يقرأ . انحدرت دراسته الى أدنى مستوياتها ، وهو يعرف أنه سيرسب هذا العام بكل تأكيد ، ولا يدرى لماذا ينتظر هنا حتى موعد الامتحان ويقدم طالما النتيجة معروفة له مقدما . ان فعله أصبح لونا من تدحرج جسم ثقيل الى أسفل بفعل جاذبية لا تستطيع ارادته كبحها أو ايقافها .

صاحبة البيت امرأة نحيلة سمراء عيناها تبرقان كعينى حدأة . تعمل ابنتها الكبرى فى محل تطريز ، والابن فى ورشة نجارة ، والأولاد الآخرون يتمرغون طول النهار فى أقذار هذا الفناء كالخنازير . تقترب المرأة من مجلس عبد العزيز . تحكى له عن بيتها هذا . سوف تكمل بناءه . هنا سيكون السلم ، وهنا غرفة أخرى وهكذا .

لم يكن عبد العزيز يستطيع ، رغم جهد مركز ، أن يتصور كيف يمكن أن يكون هنا بيت . كان الأمر بالنسبة له أن الغرفتين أقيمتا هنا كيفما اتفق، ثم نصب أمامهما المرحاض والفرن والصنبور. أما أن يكونا جزءا من خطة أكبر فان ذلك كان عصيا على فهمه . لكن المرأة تؤكد له هذا . تنبش الخطوط بقشة فى طين الأرض . ترسم الجدران وتربع الغرف ويتشكل البيت فى نهاية الأمر . وعبد العزيز يتأملها ويرى فى جسمها القمىء الجالس ساكنا الى جواره تحفز التملك وتوثب الانتصار .

كان عبد العزيز يتساءل : هل هنا يكمن الفرق بينه وبين هذه السيدة ؟ فى امتلاك التصور الواضح الحدود المرسوم بالقشة على طين هذه الأرض ؟ انه تصور قبيح ومبتذل ومتكرر فى عشرات البيوت الصغيرة ذات الدور الواحد فى هذه الحارة . وهو تصور غير مبتدع بل منقول وسينقل بعد ذلك مئة مرة فى تكرار قاتل ممض . لكن هذه السيدة عزلت تصورها واستبدت به ولم تعد ترى غيره ، وأصبح عقلها وقلبها وروحها هذه الخطوط المستقيمة المربعة

المحكمة ، هذه الطوبات الجافية بكل ما فيها من صدق وصراحة واستقامة انها هى ذلك • وهذه الرغبة فيها تنفى كل فكرة أخرى ، كل عاطفة وكل ميل ، حتى تتحول الى كيان خال من الانحناءات أو التردد • أصبح عبد العزيز تابعها ، درويشها وهى شيخ طريقته ، يرقب قدومها اليه ويسمعها بكل كيانه •

تركها زوجها بأولادها ذات يوم وخرج ولم يعد • لم تسأل عنه ولم تتبعه • ابنتها ذليلة العيون تضع أجرتها كل يوم فى حجر الأم • الولد يتمدد ويزعق لكنه فى الآخر يلقى بأجرته فى حجر أمه • عبد العزيز يحمل السلة ويمشى يتبع المرأة الى السوق • تتأمل ألواح بقايا السمك الرخيص • تجمع قمامة الأوراق والبقايا • يعودان ينضجان السمك فى الفرن على نار زاعقة بروائح غريبة • يأكلان خبزا زاهدا حتى جف جسم عبد العزيز ونحل •

بعد الامتحان حمل أشياءه وذهب الى محطة سيدى جابر • قبل أن يدخل للمحطة التفت الى الاسكندرية مودعا • ملأ قلبه من هوائها وعينيه من جمالها الخاص الذى يعرفه قلبه • قبل خمس سنوات أتى الى هنا • الآن يئوب • الأشياء التى كانت قبيحة ازدادت قبحا والأشياء الجميلة ازدادت جمالا وبعدا ؟ ومن عجب أنه بعد خمس سنوات وفى هذه المدينة يئوب الآن وليس فى قلبه سوى صورة امرأة قميئة فى حارة صغيرة متفرعة من شارع غبريال فى حى غربال شمالى الاسكندرية •

الآن أتيح له أن يعرف بيت عمه فى القاهرة • يقيم فيه مع العم وحدهما بعد سفر الزوجة • أما هو فقد وجد عملا كتابيا فى هيئة البريد بالعتبة • يبقى فى البيت وحده معظم الوقت ، يتجول فيه ويجوس الغرف التى هى عليه حرم لو كانت زوجة العم هنا • وانه ليجد فى نفسه نوعا من الشماتة • فان ذلك العجز الكامن فى نفسه هو موجود أيضا فى تكوين العم وزوجته ــ رغم

اعتدادهما بنفسيهما وبيتهما - معروض فى ذلك الطراز من القذارة على الحيطان الذى لا يفلح فى اخفائه البياض الرخيص ٠

تتبع عيناه نتوء سلوك الكهرباء فى جلافة من تحت البياض ، القذارة فى الزوايا البعيدة ، جلافة الأوانى والأكواب ، فقدان الوحدة بين قطع الأثاث التى جلبت كل واحدة من مزاد أو دكان مختلف ٠ يتأمل خلو الحيطان من صورة واحدة ، خلو البيت كله من تحفة صغيرة ، من مفرش مطرز ، خلو من دليل على وجود بشر ، بل هم بشر خائف ، يشترون الأشياء ويصفونها ويجلسون يحرسونها ولا يجسرون على الاقتراب منها واستخدامها ٠

يجلس قبالة عمه ظهرا على السفرة بعد عودته من العمل ٠ يعرف أن العم يريده أن يمشى وهو أيضا يريد لكنه لم يجد أى مكان ٠ زار حتى غرف السطوح القديمة فى شبرا ، أنكرته كأنه لم يكن هنا مرة ولم يعش بين هذه الجدران ٠ ظل يبحث ويسأل حتى عرض عليه زميل عمل أن يشاركه غرفته ، وافق فورا ، وحينما طلب العنوان كتب له الزميل اسم شارع درب طياب ٠ ذهل من الاسم فقد قرأ عن الشارع فى بعض الروايات كبؤرة للدعارة وتجار المخدرات ٠ لكنه فى المساء حمل متاعه وذهب الى العنوان ٠

بواكى شارع محمد على فى المساء والدكاكين ونوافذ العرض والآلات الموسيقية اللامعة فى الضوء الباهر انحرف الى درب طياب فسقط فى جب من العتمة ٠ البيوت على الجانبين عالية معتمة سوداء ٠ على الجانبين أفواه البيوت منخفضة غائرة كالكهوف ٠ تأتى من اليمين والشمال أصوات مباغتة فجائية ٠ عجائز خربات الأفواه يجلسن فى فوهات هذه البيوت ، كل الى جانبها صندوق مثلجات وعليه مصباح صغير ينادين على المشروبات ، ثم يعرضن أيضا بضائعهن الأخرى حينما يتوسمن فى العابر رغبة ٠ يقفز

عبد العزيز مفزوعا مفاجئا عند كل نداء ثم يمضى مسرعا ، حتى وجد العنوان ٠

انحدر فى المدخل المظلم ٠ تحسس بيديه متلمسا ٠ تحاصره وتكتم أنفاسه رائحة نتانة خانقة ٠ وجد السلم غارقا فى الظلام الدامس ٠ صعد حذرا متخوفا درجة درجة حتى وصل الدور الأول ورأى بصيصا من الضوء ٠ خرجت له امرأة سوداء صغيرة تبتسم بشكل غامض عن ثنايا ساقطة وتحمل على صدرها طفلا ٠ سأل عن صاحبه ووجد هذا يخرج اليه ٠ صحبه الى غرفة صغيرة جدا قذرة بشكل لا يحتمل ٠ مصباح صغير عار يتدلى من السقف ٠ الحيطان لا لون لها من الوساخة ٠ الأرض مفروشة بطبقة ممهدة من الاسمنت ٠ يوجد شباك مقابل الباب ٠ ليس هناك من المتاع سوى حصير صغير وبضعة فرش ٠ ملابس الزميل على مسامير فى الحائط ٠ توجد مرآة وورقة مبقعة عليها آية قرآنية ٠

وضع عبد العزيز أشياءه الصغيرة الى جانبه ٠ الزميل أعطاه فراشا مؤقتا ٠ تحدثا قليلا ثم مالا ليناما ٠ أغرق الزميل بسرعة فى النوم ٠ فوجىء عبد العزيز برائحة البق ثم تدفقت أسرابه من على الحيطان ومن الأرض سحبا مهلكة ٠ أقام مذهولا ، أضاء النور ٠ واحدات البق ظهورها دسمة لامعة ٠ هاجت أمعاء عبد العزيز وامتلأ غيظا حتى البكاء ٠ هز زميله يوقظه ٠ أعول الزميل فى نومه باكيا قائلا أن ليس بوسعه شىء ، ثم مالت رأسه على الوسادة ٠

لم يكن أمام عبد العزيز سوى أن يبقى نور الغرفة مضاء ويبقى هو واقفا فى الشباك معريا ساقيه يتقافز يبعد عنها البقات التى تبدأ تصعد على جلده ٠ يتطلع عبر النافذة وعبر الشارع الى مقهى بقى مفتوحا ٠ تجلس أمامه على كرسى مومس فى ثياب لامعة وعلى كرسى آخر صاحب المقهى السمين ٠ يروح ويجىء أمامهما

شاب أسمر مأبون يرتدى ثوبا أبيضا شفيفا يبدو من تحته سرواله وقميصه النسائى ذو الحمالات على الكتفين ، ومن عمق المقهى المضاء بضوء شاحب ينطلق صوت الراديو عاليا بخطاب سياسى يطغى عليه ضحكات المومس وصاحب المقهى على حركات المأبون وغنجه ٠

قرب الفجر كان عبد العزيز مقتول تعبا ٠ صحا الزميل قال انه سيذهب يصلى الصبح ثم يفطر ويتوجه الى العمل ٠ مال عبد العزيز ليرقد قليلا بعد هجع البق ٠ بعد قليل صحا على أصوات أحاديث وضحكات فى الخارج ٠ أخذ فوطته وخرج ٠ مر فى العتمة بصاحبة البيت واقفة أمام باب غرفتها تحمل طفلها وحولها صبيان وبنات العمال لدى زوجها الذى يملك مقلب زبالة ٠ الأولاد جلدهم مصبوغ بطبقة سوداء من الوسخ ، تبدو شفاههم وأسنانهم صفراء وبيضاء فى العتمة ٠

دخل عبد العزيز المرحاض المظلم ظلاما دامسا ، جلس والرائحة تقلب أمعاءه ٠ اتضحت له حجوم صاحبة البيت وعمال الزبالة على البعد ، سود ان باللون أو بالوساخة ٠ أفواههم غريبة يتحركون فى اطار من العتامة ومن الجدران والسقوف الوسخة ٠ يضحكون ويزعقون ويتخالطون ويتحسسون بعضهم كلهم ويسمون مشاعرهم وأعضاءهم ويصرخون ويتأوهون فى صورة كابوسية جنونية ٠ قام عبد العزيز من المرحاض متحدبا كأنه خنفساء ٠ له روح وقلب خنفساء ، يحركه شبق لا يقاوم للتمرغ فى الوساخة ٠ تقدم ناحية الجمع بطيئا ، ثم وقف يرقب حتى نزل الأولاد يحملون طعاما لرب العمل ٠ اقترب هو من صاحبة البيت يتحسسها وهو يرتجف ٠ ضحكت المرأة جدا ولمدة ، ثم فجأة تشوه كل فمها وصرخت به وقالت انها ستخبر زوجها ٠ جمع عبد العزيز أشياءه كلها وطار نازلا يخبط فى ظلام السلم حتى الشارع ٠

دخل باب هيئة البريد ومضى فى الممر الطويل الى غرفة مكتبه . عتامة الممر وجدرانه الصلدة كأنه قلعة أعطتـه طمأنينة كلاحة الحيطان وتراكم التراب فى أعاليها . دخل المكتب . الغرفة مربعة بصرامة ، كرة المصباح زجاجية بيضاء مدلاة من السقف . طاولات الكتابة من طراز قديم يؤطرها سياج من الخشب المشغول . شىء مهيب قوى كامن مسيطر ، فى الالتصاق به راحة وأمان .

كان يتمنى ألا ينتهى العمل اليوم بهذه السرعة ، ولكنه انتهى وخرج الى الشارع متاعه فى يده ولا يجد مكانا يأوى اليه . لم يكن حزينا جدا لكنه كان يحس انه يهـوى الى بئـر ليس له قاع احساس كابوسى لا يستطيع ايقافه . يمشى فى الشوارع متسكعا ، يقف أمام كل نافذة عرض ويتأمل كل وجه وكل شىء . لا يكف عن محاولة ايقاف سقوطه فى القاع لكن المحاولة لا تنجح حتى تذكر خاله الأوسط فى شبرا الخيمة . انطلق اليه .

فى البيت القديم قيل له انه انتقل الى عنوان آخر وصف له . ذهب الى أرض الفرنوانى أقصى القاهرة من ناحية القليوبية . أرض منخفضة عن الشارع تجرى فيها شوارع منحدرة على جانبيها بيوت صغيرة متراصة جديدة من الطوب الأحمر والمسلح لم تدهك بعد بالمونة وأغلبها من دور واحد . عثر على بيت خاله ، الذى لا يختلف عن البيوت الأخرى فى أى شىء .

عرف فى غرفة الخال السرير الذى كان جديدا وباهرا يوم تزوج فى ميت غمر . السرير الآن كأنما وجدوه ملقى على كوم قمامة وكذلك الدولاب . أما الفرش فهو كوم من خرق رثة بالية اختلطت ألوانها واختفت تحت طبقة سوداء من الوساخة . كذلك زوجة الخال التى كانت فى ميت غمر فتاة ريفية لامعة العينين

متوردة الوجنات أصبحت الآن عجوزا ؛ ذراعاها كخطافين أو فرعين جافين من شجرة سنط ٠

اذا تقابلت نظراتها مع نظرات عبد العزيز لمح فيها ابتسامة ومسحة من صبا أهلكتها الوساخة والتراب ٠ تقول له : فاكر ؟ تقصد أيام ميت غمر والبيت هناك ٠ لا يتذكران البيت بحقيقته بل صورة محسنة يتواطئان عليها ويجعلانه ملجأ يهربان اليه من الواقع ٠ لكن ابتسامة عينيها لا تدوم طويلا ٠ ان هى الا لمحة ثم تعود تغرق فى عملها ٠

لقد باعت كل ما ورثته فى البلد وجاءت اشترت قطعة أرض وبنت البيت ثم انتهت النقود قبل أن يكتمل ٠ تجرى تشترى قطعة خشب أو تجدها ٠ تجرى تستجدى صانعا أو تؤجره ٠ تدور تدق مسمارا أو ترمم حفرة ٠ الجدران عارية من الدهاكة والأرض عارية متربة ومصاريع الأبواب والشبابيك مائلة متداعية ٠ والخال يعمل ويأتى آخر النهار يلقى لها بما كسبه أو سرقه ٠ تتأمل النقود وتتأمل الحيطان وتبدأ تدور فى الدوامة التى لا تنتهى لاكمال البيت ٠

ينام عبد العزيز مع العيال فى الغرفة الأخرى ٠ يضع على جسمه بعضا من الخرق ويتأمل طوبات الجدران واسمنت السقف حتى يغرق فى النوم ٠ فى الصباح يذهب لعمله ويعود آخر النهار ٠ يتأمل بيوت أرض الفرنوانى ٠ تتراكم حجومها الحمراء الواحد جنب الآخر ، تتزاحم وتتضام صغيرة ساخنة السقوف فى هذه الشمس ، كل بيت أمامه خزان مراحيضه ناضح يغرق حواليه والرائحة البشعة تملأ الجو ٠ وأكوام القمامة فى كل ركن ٠ الناس تخرج من هذه البيوت ثم تئوب اليها ٠ يتأمل عبد العزيز الوجوه ، يبحث عن فعل الحيطان الجرداء فى العيون والملامح ٠

استقل بنفسه فى الشقة المقابلة لشقة خاله . صغيرة من غرفة واحـدة ومرحاض ومطبخ فيه زير للماء . وضـع سريره وطاولة الكتابة . استقدم أخته من البلد لتقيم معه . اشترى موقد كيروسـين وابريق أسـود للمرحاض ومقشـة . كان فى أعماقه احساس عميق بالفقر والمحل لكنه كان يقاوم كنملة .

يروح لشوقى بين آن وآخر . لم تتغير الأشياء كثيرا من أيام طنطا . الضجيج فى القاهرة أكبـر والكآبة أعمق والأسئلة لا تجد جوابا . فى صباح يوم قبض عليه من عمله . قلب المخبرون شقته بحثا . كسروا الأشياء القليلة التى تعب فى ترتيبها . أقيد الى السجن ليقضى فيه أربعين شهرا .



أدخل بملابسه فى زنزانة مظلمة فى سجن القلعة · الزنزانة مظلمة تماما · ظل يخبط فيها حتى وجد سريرا جلس عليه صامتا مدة · بدأ يتحسس أبعاده حتى استوعبه وعرفه · خلع ملابسه وعلقها على شباك السرير وتغطى بالبطانية ونام · فى الصباح فزع على صوت راديو يذاع من مكبر صوت يبدو أنه منصوب فوق ظهر زنزانته تماما · بدأ يتحسس أرض الزنزانة وجدرانها بكفه حتى أدرك أين يوجد اناء البول وأين يقع الباب · سمى الأول مرحاضا والآخر شرفة يضع أذنه على المصراع أحيانا ويتسمع · بعد مقاومة لمدة اضطر أن يتبول وأن يعيش مع الرائحة الحادة والرطوبة العفنة ·

عرف أنه لا يمكن أن يفكر الآن · أى محاولة لفهم موقفه والحكم عليه كانت مستحيلة · أجل كل ذلك وحاول أن يكون مرحا · لم يجرؤ على الغناء بصوت مرتفع فى هذا الظلام ، لكنه كان يهمس لنفسه ويضحك مخافتا · كانوا يأخذونه كل آن · يفتح الباب الحديدى الغليظ ويخرج · يقودونه · يرى ممرات ودهاليز

وغرف ٠ هو غير واع بنفسه ٠ وقع تبدل المشاهد يفقده السيطرة على فكره ٠ فقط يحوش عن نفسه كقطة محاصرة ٠

نقل بعد ذلك الى سجن القناطر ٠ حينما وقف فى البناء تطلع ، يصعد بصره على جدار العنبر العالى الأصـــفر تقسمه صفوف متتابعة من شبابيك الزنازين الصغيرة المقسمة بالقضبان الغليظة ٠ دخل العنبر ٠ على اليمين والشمال صالة مبلطة شديدة الطول على جانبيها صفان من زنازين أبوابها صغيرة متتابعة ٠ مساجين كثيرون دائبو الحركة والتنظيف والزعيق ٠ صعدوا به سلما حديديا ٠ طابق أعلى ٠ صفان آخران من الزنازين عـلى الجانبين أمامهما ممـر مسيج بالحديد ٠ تتابع بعـد ذلك أدوار الزنازين وأسيجة الحديد ، والمساجين دائبو الحركة فى القـاع أو فى الممرات المسيجة أمام أبواب الزنزانات ٠ أحس بالناس طيورا داجنة هشة «محبوسة» فى قفص هائل من الحجر والحديد ٠ حتى بقهر لا يوصف ٠

أدخلوا ثلاثة فى زنزانة ٠ فرشوا الأرض بأبراش الليف ٠ ثم غطوها بالبطاطين وجلسوا ظهورهم مركونة على الحائط ٠ الباب غليظ مصفح بشرائح الحديد ورؤوس المسامير ٠ الجدران نظيفة لكنها صلدة ثابتة ٠ من الشباك بأعلى ينصب مربع ضوء شاحب خلف الباب ٠اناء البولفى الركن ٠ كان شوقى الى جواره قال : هذا سجن شرقى حقيقى ٠ تعجب عبد العزيز من قدرته على استيعاب الموقف وتلخيصه وهو نفسه عاجز عن فهم أى شىء ٠

أبواب الزنازين تفتح بمفتاح حديدى كبير ٠ يعرفون صوت ولوجه فى الأبواب ، تشرئب القلوب على أبراش الليف وينتظرون دورهم كاناث ذليلة ٠ اذ تفتح الأبواب يتدفقون كلهم شاحبين ، مبتسمين يمشون حفاة على البلاط الى دورة المياه ٠ ثم ينزلون

فى فسحة فى الفناء فى حراسة جدار العنبر الشاهق ، يدور طابورهم على محيط دائرة مرسومة فى خيالهم عدة دورات ثم يئوبون الى الزنازين ٠

ويحل المساء ٠ يثرثرون قليلا فى العتمة ـ لأن الاضاءة ممنوعة ـ ثم يأوون الى فراشهم ٠ قد يبقى عبد العزيز وحده ساهرا ٠ أنفاس النائمين حوله ، ومربعات الضوء الساقط من شراعة الباب عند أقدامهم ، وزوايا السقف المظلمة وجسم أناء البول ورائحته ٠ تتعلق عيناه بالمصباح الساهر فى الممر أمام باب الزنزانة ويبقى شاردا ٠

يتذكر كل الأيام ،كل السقوف التى نام تحتهاوالحيطان ، كل الغرف ٠ هل هذه نهاية المطاف ، أم سقطة ، أم خطأ ، أم انتحار بدافع اليأس ٠ لم يستطع ايجاد اجابة ٠ المؤكد أن الزنزانة ـ فى سلسلة الغرف التى بلا نهاية ـ هى شىء مختلف ، ليس ذلك لأنها أكثر قذارة أو أقل أناقة ، بل لأن الرعب الكامن فى جدرانها وشباكها وبابها شىء لا يحتمله قلب انسان ٠ ان الذل والاهانة فى هذا المكان كائنان فى تحول الانسان الى شىء مهيض يمكن سحقه فى أى لحظة ، بدون أن يكون فى وسعه الفرار أو المناورة أو الدفاع عن نفسه ٠

هل كان يعرف المصير ؟ بالقطع لم يكن يعرفه ، أو كان تصوره عنه ليس بشعا الى هذا الحد ٠ لكن لو أنه عرفه ؟ القضية هى قبح المساكن ، وأن الواحد يلقى من حفرة الى حفرة وأنه يهان وأن كل حس فيه بالجمال لا يحترم ، لدرجة تهدد بفقدانه لوعيه واحساسه بذاته كبشر ، عندئذ لابد أن يقول لا ليس بسالة ولا نبلا ولا عشقا للمخاطرة ، انما هو التأوه الانسانى الطبيعى من وقع الاهانة ، تأوه لم يكن من الممكن كتمانه ٠٠ لم يكن من الممكن كتمانه ٠

تسيل دموع عبد العزيز فى الليل وحده . الوقت يمر بطيئا فى هذا الحبس . له الآن خمسة أيام ، واليوم اكتمل عمره خمس وعشرين عاما . ترى كم سنة يبقى هنا ؟ اثنين .. ثلاثة .. خمسة ؟ عندئذ يكون عمره ثلاثين عاما . يكون فى العمر بعد بقية .. ربما . يسمع رهز الأجساد فى أربع صفوف الزنازين فى أربع طوابق . يسمع تنادى المأبونين والضحكات الكابية . الخبط بالقبضات اللينة يحمل الهمسات عبر الجدارن . ثم رويدا يموت كل شىء .

نقل الى سجن مصر . حينما وقف عن الغناء بين بنائى العنبرين الضخمين أصابه الاشمئزاز . البنـاءان هنا فى غاية الرثاثة والقذارة بخلاف سجن القناطر . فى عمق الفناء مسجون عار تماما وعاكف على تسليك بالوعة المراحيض بقضيب طويل فى يده . سار به العسكرى الى عمق تلك الباحة بين العنبرين . ثم مال به يمينا الى جزء خلفى من العنبـر على اليمين يسمى (عنبر ج) ، وهو حبس مؤقت ، للمتسولين ، ومن تحت العلاج من المساجين والأحداث الذين هم تحت التسنين لتحديد امكانيـة استمرار حبسهم أو تحويلهم لاصلاحيات الأحداث .

تأمله شاويش العنبر ذو الشوارب الضخمة وهو جالس على كرسى أمام الباب يأكل الحلوى الطحينية من طبق موضوع على كرسى أمامـه ثم نادى على المسـجون المنوط بالنوبة أن يأخذ عبد العزيز ويسكنه . خطا العنبـر داخلا . الزنازين فى الدور الأرضى قبـور حقيقيـة مظلمـة . ارتعـد حتى مح عظامـه . المساجين مهلهلو الثيـاب نابتوا اللحى منحرفوا الخلقـة شائهو الأفواه والعيون . يمشون الهوينى أو يقفزون بشكل مفاجىء أو يصرخون أو يتعاركون أو يضحكون . مشى عبد العزيز دائمـا يحاذر ، مع ذلك أن يصطدم بواحد منهم . السلم هذه المرة فى جوف الحائط . يصعد خلف المسجون الذى فى يده المفتـاح ..

مسجون آخر ذابل الساقين بشلل الأطفال مفخوت العين ينزل السلم بسرعة مخيفة ·

فتح له المسجون زنزانة فى الدور الثانى بابها مصنوع من عمدان حديدية قائمة · أدخله وأغلق عليه · الزنزانة فيها سرير ذو ثلاثة طوابق عار مترب معوج ساقط من وسط حتى تقارب زوجا الأعمدة من أعلا ، تكاد تتلامس رؤوسهم · فى الركن بضعة بطاطين متصلبة بالقذارة وركام التراب · الحيطان مليئة بالحفر والبقع وعليها كتابات عجيبة بالأسود والأحمر وصور أعضاء تناسلية وفروج نساء واليات رجال تلج فيها قضبان رجالية · وهنا وهناك صرخة فى وسط دائرة حمراء · « روسيا ·· النشال الشاب » ·

من الدوار والارهاق والاختلاط لا يدرك عبد العزيز ما حوله · وقف ممسكا بعمودين من أعمدة الباب يتأمل ما حوله · المساجين فى الزنازين المقابلة أكوام من الخرق تتقارب رؤوسها فى حلقات، يدخنون أو يلعقون بأصابع معروقة شائهة من القروانات بقايا أطعمة · يتلفتون ويخرجون ألسنة حمراء تلقف البقايا من على شواربهم كحيوانات منقرضة · مساجين شبان شرسو الوجوه يمرون فى الطرقة وينادون مخافتين على الحشيش وعلى السجائر· عيال صغار يجرون هنا وهنا · ينقض عليهم شبان أو رجال كبار ويأخذون الى زنازين مستورة أبوابها مستورة ببطاطين وسخة رثة · العيال يقاومون أحيانا فزعين خائفين أو ضاحكين لاعبين فى أحيان كثيرة · خلف الأبواب تسمع صرخات الفزع وصرخات الرضا أيضا · فجأةأحس عبد العزيز بجلده يلتهب · اكتشف أن سحبا من القمل قد تغلغلت فى جسمه وملابسه · يكاد يفقد عقله والكائنات الصغيرة الدسمة المدهنة قد هزمته تماما ·

عرف أن مسجونين سياسيين آخرين هنا · أخذوه لهما · زنزانتهما مبيضة وسريرهما مفروش ببطاطين جديدة · على الشباك

مصاريع خشبية · عندهما بعد ذلك كرسى وطاولة صغيرة والأرض مفروشة ببرش من الليف · عندهما أوان كثيرة ، يبدو أنهمايطبخان ويأكلان جيدا · قدما له الكرسى وكوب شاى · قال لهما عن القمل وعن فتكه بجسده · قالا لا حيلة وان عليه أن ينظف ملابسه قبل أن يأوى لسريره مرة وفى الصباح مرة ·

أولهما طويل نحيل مجوف البطن عريض الكتفين آمرالكلمات ·· والثانى قصير ممتلىء مصفف الشعر حليق الوجه ، يطيع طاعة أنثوية مدللة ، يتأوه اذا ما ضبطه الآخـــر أو دفعه ثم يغرق فى الضحك · بقى عندهم قليلا · كلفا مسجونا لقاء سيجارتين بتحسين الوضـع فى زنزانة عبد العزيز قليلا وتزويدها ببطاطين نظيفـة ومصباح وستر الباب بالبطاطين ·

قبل اغلاق الأبواب لتمام المســاء يأتى عسكرى بدفعـة من مساجين جدد يكون بينهم عادة صبية صغار · يسرع المساجين الكبار والمتاجرين فى الحشيش والسجائر والشاى والسكر وغير ذلك ، يسرعون الى الشاويش ويختارون من الصبيان من يروقهم ليبيت معهم لقاء اتاوة يؤدونها للشاويش ذى الشوارب الكبيرة · كان أحد هؤلاء يصر كل ليلة على أن يكون معه صبيان جديدان · وكان الصبيان فى العادة يفرحون بالدفء والحمـــاية والطعـام والسجائر ·

يأوى عبد العزيز الى زنزانته · يتمدد فى السرير المعـوج · القمل يسحب على جسده وينهش فيه ويحذر أن يلمسه حتى لا يقىء امعاءه قرفا · يتأمل تهاويل الجدران ويسمع الأصوات فى الزنازين ·· صرخات العيال أو ضحكاتهم · مواويل باكية · حنين الى الحياة وشكوى من ويل السجن ·

كان يقضى النهار يتمشى أمام باب زنزانته ذاهبا آيبا · الى جواره لص منازل معنى بزنزانته ، يستر بابها ويزودها ببطاطين

نظيفة وأوان وشباك ومصباح وغير ذلك · اذا مر به وسلم عليه قال له الرجل : اتفضل ـ كأنما يقف أمام بيته فى حارتهم · يحكى لعبد العزيز عن سرقاته كأنما يحكى عن عمله المعتاد الذى يرتزق منه · تقطع حكايته سعلاته ، فهو مريض مزمن بالربو · ويحدث بعد ذلك أن يختلف مع الشاويش على الأتاوة ، فيهجم على زنزانته يخربها · ويبدأ الرجل من جديد · يتأمل عبد العزيز هذا العالم الصغير · بعض المساجين هنا اذا انتهت مدتهم أقدموا على فعل معاقب عليه ليتاح لهم استمرار بقائهم فى هذا العنبر · تسرى رجفة فى جسده · أترى يمكن أن يتحول الانسان الى كائن يهده الوسخ والقبح ويستمرئه ويعـاف غيره ·· غيره ·· غيره ·· هل يوجد غيره ··؟

نقلوه الى عنبر آخر · ألقى آخر نظره حوله ثم مضى يتبع العسكرى · شاويش العنبر ذو الشوارب جالس على كرسى أمام الباب يأكل الحلوى الطحينية من طبق موضوع على كرسى الى جانبه · نظر اليهم شاردا قليلا ثم عاد يواصل الأكل · وضعوه فى زنزانة وأغلقوا عليه · عارية تماما ونظيفة · وقف وسطها بالضبط وزعق ، ردت الجدران موجات الصوت الى جسمه ، جرب هذا مرة ومرة ثم ضحك · هذه الجدران والشباك والباب قادرة على أن تحول الانسان الى قزم ، الى حشرة تخبط برأسها لا تدرى أين تذهب · بعد قليل فتح عليه الباب المسجون المنوط · ولد نظيف وسيم فارع · أحضر له برشا وبطاطين وقروانة بها قطعة من الجبن ورغيفين · بعد أيام علم أن هذا الولد كحل عينه بقلم الكوبيا فالتهبت ونقل الى المستشفى حيث بقى مدة ثم عاد وقد طلست عينه بالبياض تماما · يتأمله عبد العزيز ويتذكر أيام سلامة عينه ويبحث فى ملامحه عن سر هذا العنف المروع على الذات والجسد ولا يجد دليلا ·

فالناس هنا طيبون وهشون ، لكنهم سريعو التقلب غدارون · يحرص كل واحد منهم على الاحتفاظ بنصف شفرة حـلاقة ،

وينهال على جســـده تقطيعا عند أقل اعتـــداء يوجه اليه من الشاويش أو غيره · بل ان واحدا منهم وضع ساعده على سياج الممر أمام الزنازين وأهوى عليه بقبضة يمينه ، هشمه وسقـــط مغشيا عليه ، نقل الى المستشفى وعبد العزيز واقف ينظر · هذا القفص الهائل من الحديد والمسلح ـ هنا أو فى سجن القناطر ـ يضغط على عقول الناس وأرواحهم ، يرهقها ، يخرجها عن طورها يتحولون الى حيوانات تتصارع من أجل سيجارة أو لقمة أو ولد طرى حسن الصورة · أو يتصارعون للاشىء · أو يقامرون على شىء من هذا أو على لا شىء ، والخاسر اذن يشرب كوز ماء · ويظل من يخسر يشرب حتى ينقل الى المستشفى واللعبة المروعة تستمر · يتساءل عبد العزيز الى متى ، كم من الوقت بقى ·

نقل الى العنبـر مسجونان سياسيان آخران ، وأقاما مع عبد العزيز فى زنزانة · بعد فترة قليلة نشبت بين الثلاثة كراهية مريرة سوداء لم يستطعوا التخلص منها بقية أعمارهم أبدا · كان عبد العزيز يقف فى وسط الزنزانة صارخا فيهما ملوحا بقبضتيه ، كلماته تفيض ضراوة وتجريحا وحقدا ، وهما ممددان على السرير ذى الثلاثة طوابق ينظران اليه جامدين لا يفهمان ما يريد · انه يكنس الزنزانة بكفيه ، يغسل اناء البول بيديه · يحاول أن يوجد جمالا ما ، نظاما ما ، لكن بلا جدوى · كانت تلك الجدران وذلك الباب تقف ضـد كل محـاولة للسجـين أن يحيـا · تضـع الأشواق المقهورة فى داخله · يصرخ فى زميليه · يكرههما كما كره كل القبح فى حياته ، فهما يحتقران خرسه وغموض رغباته وعدم معرفته ما يريد وادمانه الغسيل والتنظيف طول الوقت فيما لا يمكن ان ينظف أو يصير حسنا ·

تبقى الزنزانة مغلقة على الثلاثة والصراع المرير لا ينقطع طول الوقت ، فاذا ما فتح الباب كان فى ذلك راحة · لم يكن فى روية قفص متعة ، لكنه أفق أكثر انفساحا · يتمشى عبد العزيز

فى الممر أمام أبواب الزنازين ، يزور بعض المساجين . منهم من يجهد أن يسكن وحده فى زنزانة ، ثم يحاول جعلها تشبه بيتا ، بأن يضع فيها قلة ماء ، أو مرآة فى الحائط ، أو مفرشا على السرير . يبتسم عبد العزيز . انه جهد البشر الضعاف لمقاومة قهر هذه الحيطان لكنه اذا ما حدث خلاف مع شاويش العنبر ، فانه يجىء ويحطم كل شىء . وسرعان ما تعود الزنزانة تغلق على ثلاثتهم . فاذا ما حل المساء ، أحيانا ، صعدوا الى الطابق العلوى من السرير وجلسوا قبالة شباك الزنزانة يطلون على العنبر الآخر والباحة الصامتة بين البناءين .. هكذا ردحا من الوقت حتى يأوون الى فراشهم .

نقلوا بعد ذلك الى سجن الاسكندرية للمحاكمة .. هذا سجن أكثر نظافة . الأرض رملية والمبانى جديدة ولون الشمس على الجدران أكثر شحوبا . صحت الاسكندرية فى قلب عبد العزيز . ينقلون كل يوم الى قاعة الجلسة فى عربة مغلقة تماما وجوفها مظلم . يجد ثقبا صغيرا يطل منه على المدينة ، لا يتيح له منها الا مقدار طارة الغربال . يحيى ذلك فى نفسه ذكرى مدينة كاملة بشوارعها وهوائها وبحرها . يتساءل فى نفسه لماذا تكون المحاكمة بالذات فى الاسكندرية ، ذلك البلد الذى يملأ القلب بالحب . تترى على قلب عبد العزيز كل الصور . كل الحيطان والسقوف التى أفعمت الروح بالقهر والكآبة . ثم فى نهاية هذه الرحلة الطويلة فى المساكن القبيحة تكون المحاكمة هنا على شاطىء هذا الأفق اللازوردى الرائع الجمال .

قاعة الجلسة رهيبة . لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يرى فيها واحدة أو يقرأ عنها ، لكن عبء المشهد على وجدانه آنئذ كان ساحقا . الجدران شاهقة ، الأبواب والنوافذ شاهقة . من السقف البعيد تهوى مصابيح ثقيلة معلقة بجنازير الحديد الغليظة . الناس على مقاعد الجمهور صغار ينظرون خائفين . فى الصدر

منصة القضاء ، هيكل مرفوع مصنوع من كتل خشب الموجنة القاتم اللامع · على يمينهم منبر ممثل الادعاء · ووراءه قفص الاتهام معلق معروض للعيون · عند أقدام منصة القضاء ، فى قاع المسافة بينها وبين مقاعد الجمهور ، يترقص المحامون فى أرواب سوداء جيئة وذهوبا ، كجزء من طقوس وتلاوات معقدة غريبة يقوم المدعى فيها بدور المنشد الفرد ·

كانت السيدة من شارع غبريال بحى غربال فى شمالى الاسكندرية جالسة فى مقاعد الجمهور · كذلك تلك الأسرة من المنشية · ومن البلد أم عبد العزيز وبعض الأقارب · الجميع يتبادلون نظرات هامسة تحت وقع المشهد الثقيل · عبد العزيز لا يعرف أهم فرحون به أم خائفون عليه · أم هى رحلة سكان الأكواخ فى كل زمان الى الحواضر للتملى من المشاهد الشامخة ، بهو الأعمدة فى الأقصر ، الأهرامات ، المعابد ، أضرحة الأولياء ، قصور الحكام وقاعات المحاكم · مسخ فيهم الحس بالجمال الى الانشداه أمام رسوم القوة · لم يتبادل مع زواره أكثر من التحية ولم يسأل سيدة غبريال هل تم بناء بيتها أم لا ·

تصور أن السؤال سيكون جارحا · قد تكون بنت جدارا أو اثنين · ذلك لا يفيد كون الجدران قائمة فى ايمانها راسخة متينة ، وهى ستموت بها فى قلبها وفى عينيها اللامعتين الحادتى النظرات · يتذكر عبد العزير اذ كان يجلس أمام غرفته فى بيتها يتطلع الى باحة المرحاض والصنبور والفرن وكتابه على ركبتيه ، يسمع حديثها ورسمها على الأرض بقشة كيف ستكون الجدران والغرف · يا لها من رغبة قاحلة نافية لكل عاطفة انسانية أخرى ، فى اقامة بناء مجرد من الخصوصية ، يتكرر فى غباء على ذات المثال فى كل أحياء الفقراء فى كل المدن ·

يتأمل الجدران الشاهقة الساحقة المحيطة به · الغرابة مروعة بين القبح فيها وفى رغبات سيدة غبريال ، بين الضراوة فيها وبين

المذلة فى عيون أهله وأقاربه من البلد ومن المنشية . أتراهم يعتبون عليه موقفه فى قفص الاتهام . يرون مكانه فى مقاعد الجمهور يتأمل ذلك الجلال وينسحق ازاء القوة من أكثر مواقع التطلع انخفاضا . يرون مكانه فى صفوف الخارجين من الأكواخ يحملون فى رحالهم قهرهم وكآبتهم من قبح المساكن ، يحجون الى المشاهد ويمرغون وجوههم فى تراب رسوم القوة .

يحس بعتاب هذه العيون ويعصره الألم ونوع من الخجل والتأثم . فهو لا يريد . وهو رغم أنفه قد صار جزءا من هذه الطقوس الجارية فى قلب هذه الغرفة القبيحة من أجل التأثير فى قلوب جماعة المؤمنين . وهو لا يريد .. لا يريد أن يعيش بقية عمره فى غرفة قبيحة فى المنشية ولا فى البلد . لا يريد أن يبنى بيتا فى غبريال ولا فى أرض الفرنوانى ولا فى مدينة المهندسين ولا فى أى مدينة أخرى تحت أى اسم . لا يريد أن يبقى فى هذه القاعة لا فى قفص الاتهام ولا فى مقاعد الجمهور ولا على منصة القضاء أو منبر الادعاء أو فى أردية المحامين .

يصرف نظراته عبر الشباك الى البحر ، رائع الزرقة تحت شمس ظهرية أسطورية الجمال . واذ تحملهم العربة عائدة الى السجن ، يعكف على الثقب الدقيق تتاح له من الاسكندرية دائرة صغيرة لكنها قادرة أن تعيد المدينة كلها فى قلبه الى الحياة . كان عليه فى هذه الرحلة من العمر أن يقول لا . ليست ثورة فى وجه الظلم . تلك بطولة وهو لا يريد دورا ، بل غرفة جميلة . المساكن القبيحة أفقدته القدرة على تصور الجمال ومعرفته ، لكن الاسكندرية أحيت شوقه اليه وأججت كراهيته لغيره .

بعد انتهاء المحاكمة نقلتهم ادارة السجن الى مبنى صغير عبارة عن أربع غرف تقف مولية ظهورها لبعضها ، وعلى كل ناحية من الشرق والغرب بابان . حول الغرف فناء يحيط به سور

شاهق • فى الفناء على البعد مرحاض وصنبور ماء • الوضع يشبه قرية صغيرة ، لكنها كانت أتعس القرى •

كانت الغرفة من داخلها عارية تماما الا من هياكل الأسرة ذات الثلاث طوابق ثم آنية البول • وبعد ذلك فالأرض والجدران قذرة تملأها الحفر ، والسقف الاسمنتى يسخن تحت شمس الظهر فتتحول الغرف الى أفران ، الى أن النوافذ صغيرة عالية لا تساعد على التهوية •

تسرى فى ساكنى الغرفة حالة من العصاب • يقفون وراء الأبواب يطرقون عليها بالقبضات وبالأحذية مطالبين بالسماح لهم بالتجول فى الفناء المحيط وابقاء الأبواب مفتوحة • تقابل ادارة السجن هذا بالامعان فى التشدد وتضييق الخناق وتقليل الأوقات المتاحة للتردد على دورة المياه •

ويكون الطرق على الأبواب هو العمل اليومى لساكنى الغرفة الذين يبلغون خمسة • يتأمل عبد العزيز قامات الرفاق ازاء الأبواب الصلدة الخرساء • يمتلىء قلبه حبا لهم • بماذا يمتازون عن بقية البشر • ربما بأنهم أكثر حزنا • فهم لا يريدون ترويض أنفسهم على معايشة المأساة ولا أن يشاركوا فى صنعها • وهم أيضا لا يعرفون المخرج منها • انهم أبطال تراجيديا فاجعة ، وربما سيظلون يخبطون بأيديهم على الأبواب هكذا حتى يسقطوا خلفها هالكين •

بعد صدور الأحكام عليهم نقلوا نهائيا الى سجن الوادى الجديد لتنفيذ العقوبة • وهذا السجن عبارة عن ثلاثة أبنية كبيرة مستطيلة متوازية على مساحة هائلة من أرض الصحراء ، يحيط بها سور شاهق عليه منصات مظللة يقف عليها عساكر الحراسة • تحيط بالسجن خارج السور مرتفعات صخرية سوداء ورمادية

ومحمرة ذات وقع مقبض على النفوس · فوق كل هذا تسطع شمس بيضاء باهرة حارقة · الناس عراة الصدور فى سراويل قصيرة · الشجرات تهرم وتشحب أوراقها قبل اكتمال نموها · الأرض كعرصة الفرن تبرق فيها حبات الرمل كأنها تتقلب فى وقدة الشمس ·

ربما كانت أتعس الساعات فى ذلك السجن هى الصبح ، عندما يفتح الواحد عينيه فيجد أنه ما زال هناك · يتأمل عبد العزيز الحيطان الأربع والسقف · الشباكان العاليان المغطيان بشبك السلك الدقيق ليس لهما من دور الا بث الضوء فى الغرفة · يتخلف بعد ذلك فى النفس احساس بعزلة لا سبيل الى الخروج منها ، وأن أحلام الليل سخرية مريرة من العزم الصادق الذى يحشده الواحد مع الناس طول النهار ·

يقوم عبد العزيز · من طول مدة السجن أصبحت روحه ذاتها مثقلة بحيث لا يحس فى المشى بانطلاق الذى يمشى ، بل هو فى كل خطوة ينظر ويتحسس هل بوسعه أن يقدم على خطوة تالية أم يعود أدراجه · أمام أبواب الغرف على الصفين ردهة طويلة واسعة عارية · باب العنبر كبير مفتوح مثل أبواب الدواوير الريفية · الشمس أمام العنبر باهرة تعمى العين · لا توجد حراسة جدية ، فلا يخطر على البال أن يحاول أحد الهروب الى تيه الصحراء المحيط المحمى كالفرن بهذه الشمس المهلكة · يتأمل عبد العزيز المرتفعات الصخرية المحيطة ، سوداء ورمادية ومحمرة يرتد منها البصر كسيرا كأنها وجوه حراس شرسين ·

ينتجع عبد العزيز ظلا جنب السور ويجلس ليقرأ · يرمق العنبر الذى عليه أن يئوب اليه قبل الغروب ثم يعود الى السطور · القراءة نجاة واستنقاذ للحظات من الموت المحقق · يكتنز عبد العزيز فى روحه الرؤى حتى يوقف ذلك المحل والجدب الذى يسرى

فيها · وهو لا ينسى الكتب التى قرأها فى سجن الوادى الجديد ، لون الورق ، أو تلك المسحة من التراب على الصفحات · وبالنسبة له لم يكن من الممكن تجريد محتوى الكتاب من صورة الغلاف أو الأخطاء المطبعية · هكذا يتوحد الكتاب مع ما فيه توحدا دراميا يجعل القراءة بالنسبة لعبد العزيز أبعد من أن تكون جدلا مع فكرة أو رؤيا بل انسحاقا أمامها فى محاولة للظفر بالنجاة من الذبول المهلك ·

فان جبروت الصحراء خارق · وهى تملأ قلب الواحد بالخوف حتى وهو يمشى فى وضح النهار · وقد اكتشف عبد العزيز أنه يتجنب التطلع الى المرتفعات الصخرية المحدقة وهى حاضرة متجسدة فى وعيه · وأن خوفه يتحور الى حزن من طراز غريب يشبه أن يكون عزوفا أو أنفة أو صفاء كصفاء النساك المنقطعين الذين يسلمون أرواحهم الى هذه الصحراء فتطهرهم حتى يكون تجنبهم للمعاصى لا كراهية واستفظاعا ، بل سأما وملالة · وهذا هو الصفاء الذى قد يستغرق الوجود كله حتى العدم ·

أحيانا يمضى عبد العزيز متجاوزا سور السجن · الحراس يروحون ويجيئون غير مهمومين كثيرا بأمر المسجونين · انهم دائخون من الشمس هم أيضا · يقرءون السلام فى كآبة ثم يمضون لا يلوون على شىء · سقط الخوف والحذر والتحايل · أمام هذا الجلال المخيف الذى يزلزل الآفاق زلزالا صامتا · أمام هذا الروع الكامن فى الكتل الشائهة الكابية الألوان والمحدقة من كل صوب · أمام هذا كله لا يخاف الواحد من الآخر ، بل يكون ثمة خوف يحيط بالناس من كل جنب يأخذ عليهم النواحى والجهات ، فلا يرى الواحد فى أخيه الا تكرارا لخوفه ووحدته ·

يمضى عبد العزيز الى المزرعة · ثمة محاولة لزرع الصحراء · يتصور أن هذا هو الممكن الوحيد لكسر قبضة هذا

المحل على الأرواح · يهتم الرفاق بزراعة قطعة أرض لمد السجن بالخضر · كان عبد العزيز ينشغل معهم أحيانا كثيرة بفلح الارض المستعصية ، فيتاح له أن يحرر نفسه ساعة من قبضة الصحراء الصخرية · يمضى بعد ذلك يستحم فى الحوض الذى أقيم جنب النبع لخزن الماء وتنظيم استعماله فى الرى · كانت لحظات الاستحمام متعة حسية خالصة يجرب فيها فرحة داعرة تغسله من أدران القنوط ·

فى طريق عودته من الحقل كان عبد العزيز يمر دائما بهذا المكان · هنا أقام أحد الرفاق المعماريين من اللبن ظلة صغيرة · أعمدة نحيلة وعقود متكسرة على طراز أندلسى · السقف مزدوج من صاج البراميل القديمة ثم من الخيش · كان هذا البناء يفتن عبد العزيز ، ليس لأنه جميل بل لأن فيه رغبة محبطة فى صنع شىء جميل · يحس الواحد فيه بجمال الحلم ومرارة لحظة الاستيقاظ من الحلم فى تعبير واحد · يجلس فى ظله عبد العزيز آنا ، ثم يمضى فى طريقه مشغول الفكر ·

لقد كان بدأ يكتب مقطوعات صغيرة · يحس بعجز ما يكبل قدرته على التعبير وميل الى الترديد والغناء · يمضى غير قادر على تحرير نفسه من سيطرة هذه الأفكار عليه · من بهر الشمس على الطريق تظلم الدنيا فى عينيه وتتلون بالأسود والأحمر والأخضر فى دوائر مؤطرة ومتتابعة ومتداخلة · تهب الريح محملة بالرمل فتسوط وجهه وذراعيه وتترك سحجات حمراء مزرقة على أصداغه ولحم جسده ، حتى يعود الى السجن ·

المسرح الكبير فى الساحة · حمامة السلام الناصعة من الجص على أرضية رمادية هى لون الحائط · يتذكر المساء الفائت عندما تلألأت الأنوار ومشوا زرافات الى العرض المسرحى · فى ذلك المساء تصور عبد العزيز أن ثمة رعب كامن متوزع على كل

القلوب ، هو مساحة عدم التصديق الكامنة فى أغوار كل وعى بالحلم مهما كان هذا الحلم رائعا ٠

لكن عبد العزيز يقبل مع الناس على العروض المسرحية فى الأماسى ، وليالى الشعر وهو يقرأ فى محاولة ضد تلك الطهارة القاحلة فى جفاف الصحراء ٠ يجهد أن يفعم روحه ثراء وخصوبة ، وأن يرسب فى عظامه احساسات سمراء يرتجف لها من الأعماق ويحصل منها القدرة على الاستمرار ، والا هلك وجف وسفت الرياح عليه الرمال ٠

يدخل عبد العزيز العنبر ٠ كانوا فى مثل هذا الوقت من كل يوم يجهزون للجريدة الأسبوعية المنطوقة ٠ لكل مجموعة سياسية واحدة ٠ يجلس عبد العزيز ويسمع ويتأثر أحيانا الى درجة الانفعال ٠ فى العصر يخمد حماسه الشديد لهذه الفكرة أو تلك ، لهذا التصور السياسى أو ذلك ، وتبقى ذكريات صوتية من بعض المتكلمين ٠ مجرد أصوات خافتة فى أعماق التذكر ملونة بالحرد واللهفة والتشبث بالقدرة على التعبير عن حياة أخرى ؛ تعسة مكسورة لكنها توغل فى البعد وبسرعة مخيفة والرجال هنا فى المنفى الصحراوى يواجهون التساقط كأوراق جافة ٠

فى العصر يخرج عبد العزيز مع الناس ٠ يحتشدون كلهم تقريبا على السكة المرصوفة الطويلة بازاء العنابر الثلاث ، ويعكفون على التمشى جيئة وذهوبا فى ايقاع متوتر يزداد سرعة وتوترا كلما اقتربت ساعة التمام واغلاق العنابر ٠ يتصور عبد العزيز أن هذه الظاهرة كبيرة الشبه بموكب الجنازة فى بلدهم ٠ استعراض للحياة تحركه رغبة دفينة فى تحدى الموت وتحويره الى مجرد انتقال تمت طقوسه الى الحياة نفسها ٠ وعليه تكون المقبرة امتدادا للقرية ، امتدادا صامتا غامضا مليئا

بالأسرار ، لكنه على أى حال ليس خطا باترا باردا بعد امتداد الحياة وانطلاقها ٠

هل تحتدم التمشية على السكة كلما قرب موعد التمام حتى يكون الايواء الى العنابر هجوعا بعد تعب وليس خطا صارما ينسحب فلا تستطيع الحياة أن تتجاوزه منطلقة ؟ ربما ٠٠ لكن لا جدوى ٠٠ يظل دائما لصفارة التمام وقع أليم ٠ وتظل لحظة دخول العنبر موجعة ٠ لحظة بالغة الصدق والنفاذ حتى لكأنها الصحو من حلم النهار والى يقظة الليل الشادهة ٠ تضاء المصابيح العارية المتدلية من السقوف وتسطع على الحيطان أضواء باهرة ٠ ينشغل الناس بالعشاء وبثمالات أحاديث وبعض ضحكات ٠٠ لا غناء ٠ هم موشكون أن يسلموا أرواحهم وأجسادهم لقهر الرقاد فى الليل ٠

يتصور عبد العزيز أن جنسا معينا من المرئيات له وقع خاص على حاسته البصرية ثقيلا رازحا ٠ تفقده الوعى بذاته وتفور به الى أعماق كئيبة ، كمية عاجزة مندحرة تتحرك بعفوية وبلا ذكاء وبقانون الفعل ورد الفعل البسيط ٠ ان هذه الحيطان الكالحة المضاءة بالمصابيح الكهربية شىء قبيح ، له ترابطات أليمة بعيدة فى ماضيه ، ولا فرار منها وهى قمينة بأن تجعله يزحف على أربع ٠ يسند خشمه على ساعديه المبسوطين على الأرض ثم يعوى ككلب غير قادر على أن يسمى جوعه ٠

يبقى بعض الناس فى الغرف عاكفين على الكتب أو الكراريس ، ويخرج الآخرون الى الردهة يتمشون فى تكرار لمشهد التمشية على السكة المرصوفة فى الشمس الغاربة ٠ المشهد الآن أقل جلبة وأكثر قتامة وأهون احرارا ٠ قامات الناس الآن أكثر انكسارا وهشاشة ، حتى أن عبد العزيز ليذعر ويتساءل لماذا ينفون اذن ؟ ألأنهم يحملون تصورا آخرا للحياة ؟ واذا كانت حياتنا

تعيسة ومكسورة الى هذا الحد فلماذا تخشى تجربة تصور آخر ؟ ربما لخشيتها وذعرها هى مكسورة وتعيسة ٠

يمضى عبد العزيز يتمشى فى الطرقة ٠ يحدق فى الأركان ٠ تنشأ زوايا يلجأ اليها الأزواج متقاربى الرؤوس فى حديث طويل هامس ٠ يتفكر عبد العزيز أن الخوف قد يكون ضاريا حتى ليحرر المسرة من النواميس ٠ يهب الواحد ويوهب له فى لحظة يقف فيها السقوط والنجاة على مسافة مساحتها شعرة ٠ وخارج دائرة هذا التقارب الودود توجد برودة الوحشة ٠ عندئذ تغمض العيون على ظلمة مجردة من كل ذكرى كتلك الظلمة خلف عينى الجرو أو الطفل الوليد ، ويتحرك الجلد والأعضاء فى بحث حسى غريزى عن الأمان فى الدفء ورائحة الآخر ، وكلما كان الغياب تاما كانت المسرة أعمق ، عندئذ يكون الخلاص ٠

الليل بشع والنهار كريه ، وعبد العزيز يتصور أنه يتدحرج من واحد للآخر ، وأن ثمة قدر محرك يرسم المصير ويبتسم فى سخرية ٠ يقترب من باب الغرفة محطوما تعبا ٠ فى كل عمره وفى كل ليلة ٠ كل مرة آوى الى غرفة ونام مقهورا ومكسورا من التعب ٠ الغرفة معتمة والذبابات تجمعن فى بقع الضوء تنتظرن الصبح ٠ يأوى الى مضجعه ٠ هو أيضا ينتظر الصبح لكن صبحه لم يطلع منذ ستة وعشرين عاما ٠

وحينما أفاق ذات مرة كان فى الهواء رائحة الكارثة ٠ لقد هرب اثنان من السجن ٠ شده الخبر الى درجة الخرس ٠ ثمة خيانة ارتكبت وأحدثت فجيعة فى نفس كل فرد سواء كان مسجونا أو سجانا ٠ خيانة ضد عقيدة اعتنقها الجميع ولم يختبرها أحد ، هى انه من المستحيل الخروج من قمقم الصحراء ٠ لكن فى عمق الفجيعة فرحة باندحار هذا المعتقد الرازح ٠

الأسوار أشرعوا البنادق • فرق تمشى فى طوابير وخطوات عسكرية تحركها نداءات عميقة مأساوية ، يعقبها صك مئات من كعوب الأحذية الثقيلة للارض فى لحظة ، أو صفق الأكف لمعدن البنادق فى خبطة • مفاوضات مع مأمور السجن حول مالا يعرف عبد العزيز • الوضع يتدهور بسرعة • المسجونون كلهم أمام العنبر • فجأة يجرون هربا والرصاصات تنطلق فى أثرهم • على باب العنبر يسقط لويس وهو لصق عبد العزيز ، تتفجر رغاوى بيضاء وردية من ثقب فى أعلى فخذه ، وينطلق عبد العزيز فى العنبر صارخا : ان لويس مات •

بمقتل لويس شمل الموقع كله صمت رهيب • نقل الجسد الى غرفة المستشفى • يحتضر فى تصميم رغم المحاولات اليائسة • الناس تتكلم همسا وتروح وتجىء لا يسمع لوقع أقدامها حس • لكن الحقيقة تفعم كل نظر وكل حس • جسد لويس ممدد على كل الأيام على كل الآفاق يخضبها بالدم • أى قوة يكتسبها جسد انسان اذ تخترقه رصاصة الظلم فترديه ، ينزف أين كان ذلك فى عينى لويس قبل القتل • لا يتذكر عبد العزيز الا أن لويس كان أكثر الناس رقة ووداعة • ربما لهذا • أو ربما لجلال طقس الافتداء بالدم ما زال بعد لازما رغم أن الرصاصات تنطلق ، بعد ، كل يوم فى طول مصر وعرضها ويسقط القتلى •

دخلوا سجن أسيوط فى الليل • عبد العزيز يعرف هذا السجن جيدا • كان يحضر الى هنا للعلاج فى مستشفى أسيوط • وكانت تخصص لهم بضعة زنازين فى الطابق الثانى • ومن تقلب عبد العزيز بين السجون ، ومن تطابق هذه فى كل شىء كان يصيبه لون من الدوار • فالشمس تسقط مربعاتها المقسمة بالأعمدة فى نفس الأماكن فى ذات المواقيت ثم تتحرك ببطء على أبواب ذات الزنازين فى كل السجون • وفى كل الأوقات تهب هذه الرياح والنسائم هى هى ، وتخرج من الأبواب هذه الوجوه الشاحبة

كثـر الحديث عن مؤامرات دولية وعربات فارهة وطائرات وجوازات مزيفة · حكايات بارعة يحركها رعب والتذاذ عميق · لكن الشىء المخيف كان هو بروز حقيقة أن الكل هنا سواء أكان سجانا أو مسجونا انما هو فريسة فى قبضة الصحراء الصخرية المحمية بالشمس التى جردت فى ذات الوقت المساجين من الحرية والادارة من السلطة عليهم · وكان المحذور أن تلجأ الادارة الى فعل جسيم ، لتثبت أنها ما تزال هناك على مسافة كبيرة فوق المساجين ، وأن المراتب محفوظة لم تضيعها بشاعة هذه الصحراء ·

وقد حدث أن ألغيت الأحكـام العرفية وتم الافـراج عن المعتقلين ، وبقى فقط من ضدهم أحكام بالسجن · وقد كان يوما عجيبا · شـملت عبد العزيز روح عميقـة من الصفاء والرضا والابتسام · كان يعرف أن هذا الصفاء هو الهزيمة النهائية ، لكنه لم يأبه أو لم يستطع أن يأبه · بدأ ينتقى لنفسه من متاع الراحلين حشية أو وسادة أو قمطرا واطئا أو ما شابه ذلك · مضى ينظر يختار لنفسه الركن الذى يروقه لفراشه · فرغـم التشـابه بين الأشياء فى القبح ، الا أن ثمة فروقا توهم الواحد أن بوسعه أن يتخذ فى التمييز بينها قرارا ·

يشرع بصيرته فى الأيام القادمة فيجدها عجافا مجدبة · يستريح لهذا قلبه · ما أروح الهزيمة للنفس والخلو من الأمل ومن الرغبة فى المكابرة · حينئذ لا يكون الحزن حردا ، بل نوعا من العلة غير ذات الوجع يضوى منها الجسد والروح حتى الموت فى سلام · وتكون الدموع باردة غير مالحة والشوق نسمة طرية تدفع قلع الجسم الأبيض الى شواطىء الموت · اذ ذاك مضت آخر عربة بالمعتقلين وتقبب الفراغ ·

وفى لحظة سادت الموقع كله حالة ذعر مخيفة · رقد العساكر فى وضع استعداد خلف مدافعهم الرشاشة · الجنود على منصات

المرهقة والعيون الجارحة · يحس عبد العزيز بالدوار · فتلك لحظة خاصة شائهة ممتدة على القطر من الاسكندرية حتى قنا · لحظة مجدبة كالحة تفقده وعيه بذاته تماما ·

وكان مساجين يأتون لزيارتهم · رجال من عمد الصعيد فخورون بأنهم يؤدون العقوبة من ثأر كان عليهم أن يأخذوه · ثم يعزمهم هؤلاء فى زنازينهم فى الأدوار العلوية · هناك الغرف أكبر ثلاث مرات عن الزنزانة العادية · السيد جالس فى ركن مفروش وثير ، والأتباع فى الركن الآخر يتكومون فى صمت · واذا ما وصل الضيوف قام السيد مرحبا ، وقدم الأتباع صينية عليها من الحلوى والكعك والشاى ·

وفى اللحظة يصحو احساس عبد العزيز وذكرياته القديمة عن الغرف الريفية القديمة ، ومجالس الرجال واطار الكآبة المحيط بالجلسة والسمر · أى قوة فى قلب هذا السيد تجعله يفرض روحه وتراث نفسه على هذه الغرفة · أترى لو كان القلب مليئا بالقوة أهو قادر على أن يضفيها على الجدران المحيطة المحدقة · عبد العزيز عاجز عن الزحف على أربع منسحقا · يظل صامتا متأملا تقديم الصينية وأكل الكعك وشرب الشاى وكلمات الترحيب الضخام من السيد الضيف ·

انها طقوس الموت على جدران معبد قديم · كل التفاصيل · الأطباق والأكواب والقوارير · الكلمات المقدسة وتلويحات الأيدى ونظرات السرور الجنائزى والضحكات المخلوطة بحرارة أدوية التحنيط · انه خلود مصر الخاص التعس المقبور خلف الحيطان الكالحة الجمال ، غائب ، والجهل به لا ينفيه ، والمأساة والبكائيات لا تنفى أن ثمة لحظة انتصار · يريد عبد العزيز أن يرتاح ، واذ هو الآن أمام سجن أسيوط فانه يأمل ، رغم أنه يعرف أن شيئا فى السجن لم يتغير لكنه يأمل فى أن يبيت ليلة وهو قرير ·

كان المساء قد تقدم . مشى خمسة منهم وراء عسكرى يرن حذاؤه الضخم المحدو بالحديد فى جوف العنبر المضاء بضوء أصفر خفيض حتى ما يميز الواحد كفه . أغلق عليهم فى الزنزانة ، ومشى يرن حذاؤه فى جوف العنبر مبتعدا ، وهم صامتون ينصتون لوقع أقدامه الذى يذوى ، حتى اذا ما انتهى شملهم الرعب من عمق الصمت الذى تخلف عن الضجة التى ماتت .

عاش عبد العزيز يقظة مرهفة . أعصابه فى كل جسمه مشدودة كاوتار توجعه . كل من معه كذلك . يترقبون أن يلد هذا الصمت شيئا . جاء هذا الميلاد مفرقعا أحذية غليظة تدب هوجاء فى جوف العنبر . أبواب تفتح ، صيحات ومعارضات وأوامر وشتائم ، زملاء أصواتهم معروفة للقاعدين هنا . قفز واحد قائما يمسك قضبان شراعة الباب بيديه وهو يتسلق بأقدامه العارية على خشب الباب الزلق . يزعق سائلا عما يجرى ، ويقال له أن الناس يؤخذون ولا يدرى واحد منهم الى أين .

مصباح الزنزانة باهر . الجدران صلدة بيضاء . الباب أصم . عبد العزيز يختنق . بدأ واحد يعول بقوة . ليس عبد العزيز أكثر تماسكا ، بل ربما كان انفجر فى الصراخ لو لم يفعل هذا الزميل . جاءت الأقدام الغليظة تدق الأرض مقتربة . فتح الباب ودفع بهم الى الخارج . وضعوا فى عربة بضائع كل اثنين فى قيد حديدى ، وبدأ القطار ينطلق فى صميم الليل عبر وادى النيل من الصعيد الأعلى منحدرا الى الشمال .

ركنوا ظهورهم على حيطان العربة المعدنية فى شبه دائرة . بابا العربة على اليمين والشمال مفتوحان على سماء نيرة بزحام نجوم باهر . قيل انهم سيوزعون كل عشرة على سجن من سجون القطر . الجالسون هنا من نصيب سجون الوجه البحرى . كان عبد العزيز مرهقا محطما ولا يستطيع أن ينام . العربة تهتز

وتتأرجح وتصدر منها أصوات معدنية طويلة وعميقة بينما صوت
جريان العجل على القضبان فى العمق ثابت ومستمر ومتقدم ٠

سحب معتمة متجمعة على أرضية الوادى النيرة بالنجوم
هى قـرى ومدائن ٠ حجوم محدبة تحت عبء غير منظور ٠
عبد العزيز فى جوف هذا الصخب المعدنى المنطلق يخترق الوادى ٠
شاهت قدرته على الرؤية والسمع والاحساس واضطربت الأزمنـة
وتداخلت ٠ يرى العمار كتلا سمراء معتمة بلا ضوء ولا وسامة ٠
بيوت ٠٠ بيوت ٠٠ بيوت ٠ متلاحقة متساندة متراكبة قميئة شائهة ٠
عزب وكفور وقرى وأحياء فقيرة ٠ امتداد هائل من الكآبة والعجز
من أول مصر الى آخرها ٠ تتميز من بينها قصور الادارات والحكام
بشعة الحيطان قبيحة الواجهات ٠ كل مئة فرسخ ينهض سجن ٠
أقفاص هائلة من الحديد والمسلح على ذات النسق وفى ذات الموقع
من الجهات الأربع الأصلية ٠ تشرق الشمس على الزنازين التعسة
وتغرب كل يوم فى ذات اللحظة ، وتهب الرياح ، ويسفى التراب
فى مصر كلها على امتداد موال تعس كأنه العويل المعدنى الصرار
لهذا القطر الهرم الذى يجرى ليل نهار يشق قلب الوادى ٠ يئن
عبد العزيز ٠٠ ان مصر قبيحة ٠٠ ان مصر قبيحة ٠

فى سجن مصر وضعوا فى زنزانة فى الدور الأرضى لصق
المراحيض ٠ معتمة رطبة الجدران مثـل كهف حقيقى ، لكنهـم
مرهقون وجائعون ، حتى أن عبد العزيز لم يكن يستطيع أن يرى
ما حوله جيدا ٠ قبل أن يغلق الباب عليهم خرج عبد العزيز الى
الفناء ، أمام أبواب الزنازين ، المزدحم بحركة نشطة عصبية متوترة
مستوفزة ٠ بخبرته قصد مسجونا بدا عليه أنه يعمل فى مطبخ
السجن ، اشترى منه قطعة لحم نيئة ضخمة بستة سجائر عرضها
على زملاء الغرفة ٠ تصوروا أن آذانهم تتحرك كالكلاب الجائعة ٠
وضعوا اللحـم فى اناء على النـار ، وبدأوا يمزقون من ثيابهم
الداخلية شرائح ويطعمون النار والجو عابق بالدخان حتى يكاد
المصباح يختفى ٠

بعد أن أكلوا أحس عبد العزيز بانقلاب أمعائه · الجدران ناشعة والزنزانة نتنة وهم يتمطقون مثل خنازير · وبقايا الطعام فى قروانة جنب الباب · تكور وجلس فى الركن · سيطر عليه خاطر أنه سيتحول الى صرصور · بدأوا يقفزون على الباب ويسألون الزملاء فى الزنازين المجاورة · ان الخطة سائرة فى طريقها وسيوزعون على سجون القطر والمجموعة التى فيها عبد العزيز ربما تكون فى سجن طنطا ·

وقد رنت الكلمة فى قلبه رنينا خاصا · فهو يعرف أن فى طنطا سجن وقد رآه لكنه نسيه ، سقط من وعيه تماما · الآن يتذكره وهو من عنبر واحد تماما مثل كل العنابر فى كل سجون مصر · الآن يتذكره والشبابيك وأذرع المساجين تلوح من النوافذ والأهل واقفون خارج الأسوار يصرخون · وقد حكى لعبد العزيز بعد خروجه أن أمه وأخته لما وصلهم خبر وجوده فى سجن طنطا ذهبوا وبقوا يصرخون خلف السور الشاهق بلا جدوى ·

لكنهم رحلوا الى سجن بور سعيد · وحينما حملتهم العربة من المحطة الى السجن أحب المدينة ·· شمسها وهواؤها شمس وهواء الاسكندرية · حيطان البيوت مجرحة بقذائف القنابل · ان ذلك يعطى الجدران سمة ما ، طابعا ما · ربما تكون البيوت أيضا قبيحة · لكن ان تثقبها دانة قنبلة ، فان ذلك يمسح عنها سمة الاستسلام البليد لقدر القبح · يؤكد أنها اشتاقت وتطلعت · ان هذه الجدران مثل قلب عبد العزيز الملىء بالجروح والندوب ·

كان مأمور سجن بور سعيد مرعوبا منهم · وكل بهم العساكر يحرسونهم ، وهم يقضون حاجتهم فى المرحاض · ووكل بهم جيرانهم المسجونين العاديين يطلون عليهم من شراعات أبوابهم ليلا ونهارا · كان عذابا انقضى سريعا وصدر الأمر بالعودة الى سجن مصر مرة أخرى · واذا ما وصلوا الى هناك كانت الجماعات تترى مرة أخرى من كل سجون القطر على سجن مصر ·

ويمتد مع الزمن ولا يكسبه معرفة ولا قدرة على الفهم الا مزيدا من الحزن .

حولهم بطات صغيرات وفرخات وفى البنانى حمامات . الفناء الآن فسيح وفيه ظل ولا تهددهن زحمة الدار بحجوم البهائم ولا وقع الأظلاف الساحق . يدرن يلقطن فى سلام . يتأمل عبد العزيز حوله . الباب الكبير وركن الزير والسلم الصاعد الى السطوح والسقف وأبواب الغرف . تلك الكتل والسطوح والتراكيب لا تزال تحمل تلك الكمية المروعة من الجهامة والكآبة رغم جهد الأم والأخوات فى الدهاكة والترميم . وحشة وجفاء وبلى فى كل ركن . تعود الى عبد العزيز طفولته وصباه بكل ما كان فيهما من احساس بالاختناق كأنما الزمن راكد لا يتحرك وهو يتقلب فى حمأته بلا مخرج .

الدوار شاهت شرفته بعد أن سقط السياج الخشبى وأقيم بدلا منه سور من الطوب الأحمر . ازداد عراء البيت القديم وقل التوقير له . رث فرش « أودة الجلوس » وتوسخت ولم يتطوع أحد لتحسين الحال . اعتاد الناس على نوم الظهر فيها . بل انه كان يحدث أن تلجأ العنزات الى ظل الشرفة ويرقدن على الدكك ويجترَرن فى هناء . البناء متروك وهرم وغير مرغوب من أحد . فى نفس الوقت لا توجد همة لهدمه واقامة شىء بدله .

الأخ الأكبر انتقل الى دار فى قعر الحارة آلت بالارث الى زوجته . باب هائل يؤدى الى دهليز ضيق طويل فى آخره مرحاض وزريبة وعلى اليمين غرفتان مظلمتان تماما . زوجة مصابة بالربو . تدب طول النهار تجهد ترم الجدران وتعيد الدهاكة ثم تنظر حولها لترى ضياع جهدها حيال رثاثة البناء وتهدمه . الأخ نحل وهرم وأصبح مرير العبارة لاذع الكلمات لا يكف عن الشجار مع زوجته . لهما ابنة واحدة تقضى سحابة يومها ترعى البهيمة

فى الحقل . واذا عادت بقت فى ركن صامتة حتى اذا جن الليل تكببت ونامت حيث هى .

يخرج عبد العزيز الى الحارة . الحيطان متقاربة والأبواب التى تنحدر الى باحات الدور . كأنما هو مسلوب الارادة أو منوم . وهو يمشى يدب استجابة لأشواق وتصورات قديمة تصمد الآن وتستبد به حتى تقوده وتوجه خطواته . يجد نفسه رائحا صوبها . تلك الدار التى كان أبوه يرتاح فيها ساعة بعد شرب قهوة العصر . وها هو الباب والباحة خلفه واللحظات من الأيام الآفلات .

السيدة صاحبة الدار ماتت . الابن تزوج وأنجب عيـالا وامرأته سمراء وسخة الثوب لا تكف عن الكدح فى وسط الدار . والدار حالت . هدمت المصطبة الكبيرة وبنيت أخرى تدور بالحائط بارزة الطوبات سيئة الدهاكة . وسط الدار مترب غير مستو تموج فيه الفراخ مذعورة . باب الزريبة لا يغلق أبدا . الجدران ودرجات السلم رثت . ضاع بياض غرفة السيدة ودهكت دهاكة رديئة . لقد ماتت السيدة . هذا شىء تقوله كل طوبة هنا .

وأشياء كثيرة أخرى ماتت وناس . وجد عبد العزيز أنه فى قريته تأسره الأشياء التى انقضت أما ماجد فانه يبعث فى نفسه النفور . كان هذا ما يحسه وهو يرى الدار التى شيدها الحاج صقر وأكملها ابنه الآن وتزوج فيها . لم يبق فيها من بهاء الا العمودان الكبيران فى الشرفة . فى الداخل جهزت الغرف بجلافة وبلا ذوق . والفرش وسخ والأشياء ملقاة بلا نظام والناس ينظرون كأنهم لا يعرفون ما الذى ينقص وان كانوا يدركون أن ثمة نقص .

وعندما يئوب عبد العزيز يغلبه الابتسام ويخطر له أن يزور دار صقر القديمة . الشجرة كما هى . يراها من بعيد . لكن طيور مالك الحزين فنيت بالمبيدات الحشرية التى شاع استعمالها

الآن . عرصة الدار خاوية . تزوجت البنات وكبر العيال واستقل كل بدار . وعاء الماء ووعاء المخلل جفا وتملحت جدرانهما . الأرملة الباقية وحيدة تكفيها قلة ماء . تسلم فى وهن يحادثها عبد العزيز قليلا ثم يمضى . فى قلبه ذات الفراغ الذى تعانيه عرصة الدار بعدما عرفت طويلا صخب الحياة وثراءها .

لم تكن نفس عبد العزيز تستريح الا فى بيت عمته . يدخل من الباب الى الردهة الصغيرة المبلطة . يميل على اليسار الى الغرفة حيث الكنبات والعمة وبناتها جالسات نظيفات قريرات يبتسمن ترحيبا . الغرفة رحبة مبيضة جيدة الاضاءة والتهوية . الكنبات على قدر الوسع نظيفة والأشياء مرتبة . أترى هذا هو الذى من أجله يهوى قلب عبد العزيز الى هنا . لا يتصور هذا فدارهم ليست أكثر قبحا من هذه كثيرا . وجهد أمه وأخواته فى تحسين دارهم ليس أقل من جهد العمة وبناتها كثيرا أيضا . الأمر أن هؤلاء فى قلوبهن مثل ما فى قلبه من الاحساس بقهر هذه المنازل ومن الرغبة فى الترك ومن الحلم بشىء غير محدد . شىء شديد الالحاح وشديد الغموض . وعليه فأحاديثهم دائما رفافة مجنحة تدور وتحوم ولا تحط على شىء حتى يقوم عبد العزيز يمضى . أكثر ارتياحا وان كان لم يجد شيئا .

وفق الى عمل فى مكتبة بالقاهرة . لم يكن يملك ما يمكنه من تدبير مسكن له . قبل ضيافة شوقى ليقيم عنده حتى يقبض أول مرتب ويتدبر لنفسه سكنا . فى الصباح يذهب الى عمله ويعود آخر النهار ليلازم البيت لا يخرج الى البلد فى الأماسى ولا أيام العطلات . كان شوقى يخرج مع أصحابه أما هو فيبقى مع الوالدة فى البيت تجنبا لنفقة لا يملكها . كانت تجربة عجيبة لم يمر بمثلها فى حياته ، أن يبقى فى البيت وهو مشتاق أن يخرج الى الحياة .

يجلس طول الوقت يسامر أم شوقى . بناتها لا تأتين لزيارتها لوجود رجل غريب فى البيت ، والابن الوحيد شوقى يقضى مساءه

وعطلاته مع أصحابه فى الخارج وعبد العزيز جالس قبالتها على الكنبة يتفكر فى أربعين عاما أو يزيد قضتها جالسة ازاء هذه الصورة على هذه الكنبات والأسرة الكالحة والدولاب فى بيوت معتمة واحدا وراء واحد فى طنطا ثم فى القاهرة ٠

أحس أنها تحبه وأنه يحبها ٠ حب خاص كذلك الذى يدرك وجوده بين أمه وأخواته البنات ٠ حب لا يوجده رحم ولا يوشجه ترابط أسرى ولا تكافل اجتماعى ٠ انما هى عاطفة خاصة محتواها التوحد ازاء قهر أبيد ٠ قهر صامت ناعم لا يقيم حول الواحد سورا ولا يغلق عليه بابا ٠ بل يسرى فى روحه كالمرض يجعله زاهدا ٠٠ زاهدا ٠ حتى لكأن نبل حياته أن يموت فى كل لحظة يتوجب فيها أن يحيا ٠ كان يستطلع سناء هذا الانقطاع فى جبين أم شوقى الذى لم ير أجمل منه ٠ وكان يسمع كلماتها تجرده رويدا من حرد عاش به حياته وهو يستطيب أن يهوى كأنه فى حلم فى غوره البعيد لحن جنائزى عذب ٠

بعد أن قبض مرتبه الأول استأجر غرفة على سطح عمارة ٠ مدخل هذه العمارة فاخر ، مرايا وأضواء وزروع ، والى ذلك فالحيطان عليها لوحات بالفسيفساء ٠ يصعد الى الدور الخامس فى مصعد كهربائى وباب صغير يؤدى الى اتساع السطوح ٠ فى القاع يوجد صف الغرف ٠ أبواب واحد بعد الآخر وبجوار كل واحد شباك صغير ٠ دورة المياه على يمين صف الغرف وهى عبارة عن مرحاض وحمام وحوض لغسيل الوجه ٠

غرفة عبد العزيز مساحتها أربعة أمتار جدرانها مبيضة ٠ مصمتة فيما عدا الباب والشباك الملتصق به ٠ وضع فيها سريرا وطاولة للكتابة وكرسى ٠ دق فى الحائط مسامير لتعليق ثيابه ٠ فيما عدا ذلك فالغرفة عارية ٠ يعود اليها من المكتبة فى راحة الظهر فيجد الشمس منصوبة على السطوح متوهجة على البلاط ٠

وثمــة صمت مخيم كصمت القبور حتى ما تطن ذبابة ولا تطير نسمة • صف الغرف فى المواجهة أبواب وشبابيك متتابعة قصيرة تبعث فى قلب عبد العزيز كل مرة رجفة •

فى أحد المرات عندما عاد • وعندما خطا الى السطوح ، الى قبو الصمت والسخونة والضوء الباهر • اذ ذاك رأى أحد السكان قابعا جنب سور المنور يسترق النظر فى خفاء على الشقق التحتية قد عرى قضيبه وانكب فى انصراف تام يحدق فى المنظر الذى يراه ويعمل بجد فى قضيبه • لكن يبدو أن خطو عبد العزيز على البلاط أفزعه • فى الثانية التالية قام يوليه ظهره ماشيا الى غرفته ناكس الرأس طويل القفا متدلى الذراعين • امتلأ قلب عبد العزيز حزنا • يدير المفتاح فى بابه وهو يرمق الآخر يغيب فى غرفته •

اذ يغلق الباب عليه ويستلقى على سريره يقبل عليه السقف والجدران ساخنة زامتة مهومة ببقع الضوء والظلال من الشباك • يتمرغ عبد العزيز على السرير غارقا فى عرقه لا يستطيع فتــح الباب والا روعه الضوء الباهر • يتفكر فى المحامى النوبى الذى يقبع فى الظهر خلف الجدار ويمنى بيده على مرأى السيدات فى المطبخ • كيف يمكن الجمع بين صورته هذه وصورته لابسا حلة أنيقة حاملا حافظة أوراقه وذاهبا لعمله ؟! لقد أطلع عبد العزيز مرة على كتاب من تأليفه نسى عبد العزيز اسم الكتاب وموضوعه لكنه يذكر أنه كان حسن الطبع لين الورق • وحينما استغرب سكنه هنا عرف أنه طلق زوجته وأنه ترك لها البيت وانتقل الى السطوح • يتقلب عبد العزيز على سريره غارقا فى عرقه ويتفكر أن مثل هذه الغرفة ستقضى على المحامى نهائيا •

ويعرف عبد العزيز أنه أيضا يتطلع الى الغرف • يرتكن على السور فى المساء ويحدق فى الشبابيك البعيدة فى العمائر المحيطة ليرى الناس فى بيوتهم ويواصل أحلامه • وقد كان يحدث أحيانا

أن يلحظه الناس فيصفقون النافذة فى وجهه على هذا التلصص . يحس بالعار ويعود لغرفته . لكن هذى لا تغلق فى وجه أبدا . فى الصبح يراها فى مطبخها تغسل الصحون . يداها جميلتان أنيقتان وأظافرها مطلية . يتحرك التكوينان الرشيقان تحت سيال الماء وعبد العزيز يتبعها ، غديرتها وجنب وجهها . ثم يئوب الى صمت الغرفة .

عرف أنها ابنة امرأة غسالة فقيرة من حى بولاق . وأن مكوجيا أوجدها لثرى كويتى عجوز أجزل له المكافأة . وأن العجوز أجر لها الشقة وفرشها واشترى لها الثياب والحلى من الذهب . وأنها تبقى تنتظره . تحضره عربته الفارهة وتمضى . يقضى عندها ساعة ثم ينصرف متلصصا حتى لا يعرف أولاده بزواجه منها . البنت فرحانة بالبيت تنظف وتطبخ وتجلس سعيدة جميلة ومتعلقة بالرجل العجوز تعلقا شديدا . يقوم عبد العزيز من نومة الظهر يخرج الى السطوح .

بهر الضوء يعشى عينيه . يمضى الى دورة المياه . شديدة الوساخة ودائما مسدودة . البواب لا يأتى بمن يصلحها الا بعد جهد ، يظلون يعانون من رائحتها ووساختها . كل جدواها ربما أنها تكسر ظلا جنبها . عندئذ يخرج سكان الغرف . يفرشون حصيرا فى الظل ويأكلون جماعة ويشربون الشاى ويثرثرون ويضحكون ويتداولون فيما بينهم احساسا خبيئا بالهزيمة والانكسار . احساس يرونه فى عيون الناس الذين يغلقون فى وجوههم الشبابيك ، فى عيون سكان العمارة ، فى لهجة البواب حينما يتكلم معهم . هم يحاولون الرفض ومدافعة هذه التهمة لكن ما يجدى وهم بداخلهم يسلمون بها وتلون كل ما يبدر عنهم بالمرارة .

وأحدهم كان فنانا تشكيليا . كان يحكى انه يخاف من الغرف الفاخرة الأثاث وأنه يفقد صوابه لو رأى ستائر على النوافذ

وكراسى وثيرة وما يشبه ذلك . واحد آخر لم يكن يتحدث عن شىء من هذا . كان فخورا بأن غرفته هى الأخيرة فى الصف وأنه بذلك من الممكن فتح نافذة فيها على الشارع وأنه يفكر فى هذا منذ ست سنوات وان لم يفاتح ملاك العمارة بعد . وهو معنى بغرفته الى أقصى حد . وأنه متعلق بزميلته فى العمل منذ ست سنوات أيضا ، وهى تمهله اذا فاتحها فى الزواج وتقول له نحن معا وأنا لن أطير وهو يعود من عمله ينتظر انكسار الظل يفرش الحصير ويسمر مع الناس .

وعبد العزيز لا يعرف أى واحد هو من النموذجين ، لكنه على أى حال بدأ يألف الحال أو يعتاده أو يغالب لحظات السخط والتمرد التى تصل الى البكاء . يعود من مسائه مع الصحاب يلقى بنفسه . تنكفىء عليه الحيطان والسقف الأبيض المرشوق فيه المصباح والباب المفتوح المفعم بالظلام . يتصور أن أشباحا تتحرك على السطح ، يطفىء النور ليرى . مبارك زميل السجن يغسل قميصه الوحيد وجواربه كل يوم وينشرهم على الحبال ان صيفا أو شتاء . يفعل ذلك وهو فى ملابسه التحتية يتقافز كالملسوع من البرد .

كان والد مبارك العجوز النوبى قد تزوج ومبارك فى السجن وأنجب ستة عيال عليه الآن أن يعولهم . يرسل لهم أكثر مرتبه ويعيش بالباقى كفافا . يعود عبد العزيز آخر المساء ليجد طه فى انتظار مبارك متقرفصا جنب سور السطوح . طه زميل سجن أيضا يريد أن يتزوج وقد وعده مبارك بسريره ودولابه اذ نقل الى أسوان لكن النقل تأخر ودخلة العريس مرتبطة بالفرش . يأتى لهذا كل يوم بلا استثناء حتى اضطر مبارك لاعطائهم له وفرش عدة جرائد فوقهم لحاف يفترش نصفه ويلتحف بنصفه . وحوله كتبه وسخان كهربائى لصنع الشاى وفى الحائط مسامير للملابس .

يجد عبد العزيز فى جلسة العصر جنب دورة المياه سلوى . فى الضحكات والثرثرة وشرب الشـاى ويجد سلوى أيضـا فى

أحاديث مبارك وفى التطلع الى الفتاة من شباك مطبخها . يذهب الى عمله فى المكتبة . يتعامل طول النهار مع زبائن الكتب الأوربية أهل حى الزمالك ثم يعود . ينقله المصعد الى عالمهم . يسمونه « السطوح » وكأنما يقصدون كوكبا منقطع الصلة بأمنا الأرض .

حدث أن الكويتى العجوز ضبطه أولاده وكشفوا سر زواجه فأرغموه على العودة الى الكويت . والبنت تركت وحدها فجأة وبلا نقود . فى أحاديث الحصيرة فى ظل دورة المياه قيل انها لا تريد العودة مع أمها الى بولاق . علق عبد العزيز أنه يفهم ذلك جيدا ، قالوا انها تلجأ للبواب للسؤال عن الرجل وأن يقرضها نقودا وأنه ينام معها . وأخيرا نصحها بتأجير غرفة من شقتها ذات الغرفتين لشاب ليبى . وقالوا ان هذا الشاب يأتى بأصحابه تسهر معهم الى الصباح كل يوم يشربون الويسكى . كان عبد العزيز يرى شباك مطبخها دائما مقفولا يئوب يقبر نفسه فى غرفته .

كل آن تأتيه الغسالة . بنت قصيرة ممتلئة حولاء مبقعة جلد الوجه تالفة الأسنان من حى بولاق . زوجها سنكرى عجوز كان لابد أن تقنع به حيث لا أمل فى غيره . بعد يوم طويل مع سيدات الزمالك المعطرات زبونات المكتبة كان عبد العزيز يعود . فى دقيقة يلج عالم السطوح ويجدها هناك . فى أول الأمر حينما راودها عن نفسها ذعرت ورفضت . ألح عليها حتى وافقت . اعتادت الأمر . أصبحت تلح اذا لم يجد عبد العزيز فى نفسه رغبة . استقر ذلك كحق من حقوقها عليه . تجىء كل يوم مبكرة وتبقى النهار كله حتى المساء اذا جاء ضيوف بادرت تخدمهم بنشاط وترحيب . تتحرك بين الغرفة والحصيرة جنب دورة المياه فى اعتداد . أصبحت تسأل عبد العزيز أين يقضى المساء وتلومه على تبذير النقود . حمل أشياءه على عربة يد عبر كوبرى أبو العلا تاركا الزمالك خلفه .

كان قد استقر رأيه على استقدام أمه وأخيه وأخته الصغيرة من البلد وأن يقيموا جميعا فى القاهرة . بذل كل ما فى وسعه ولم يوفق الا الى بيت فى أرض الفرنوانى . خاض برك الماء وأكوام الزبالة فى الشوارع الماشية بين البيوت القميئة من الطوب الأحمر المسلح وهو ذاهب لتوقيع عقد الايجار مع صاحب البيت . العيال والمعيز والكلاب يلعبون ويتقافزون ويتمرغون فى الوساخة . النساء تتنادين من الشرف ومن الشبابيك ومن مواقعهن أمام الأبواب . صوت العراك المرير الحرد فى أجواف البيـوت يرجف مصاريع الشبابيك الخفيفة . النساء تولولن والرجال يزعقن والعيال يبكون مرعوبين . يستحث عبد العزيز الخطى واجف القلب . عادت اليه أيامه هنا بقوة ، وشقته الصغيرة والقبض عليه فيها . لا شىء تغير . فقط تتراص البيوت وتتكدس وتضيق المسافات بينها . ربما بعض الواجهات لا تزال أليفة لديه وكأنما يذكرونه ويحيونه فى عتاب .

كان المسكن فى الدور الأول ويتألف من غرفتين واحدة لها شرفة على الشـارع والأخرى داخلية بين الغرفتين ردهة فسيحة فيها باب على السلم وطرقة صغيرة فيها المطبخ والحمام والمرحاض . كان تشطيب المسكن شديد الرخص والرداءة . كانت مصـاريع الشبابيك والأبواب رقيقة مخلصة لا تغلق باحكام . ملاط الحيطان مخشوشن ، والبياض بألوان حمراء وخضراء مبتذلة ومبقعة . كان السقف الاسمنتى الرقيق يسـخن فى الصيف حتى تصبح الشقة جحيما ، وفى الشتاء تبرد كالثلاجة وتبتل الجدران الرقيقة من المطر وتنشع البلولة تنضحها الى الداخل .

استقل عبد العزيز بالغرفة ذات الشرفة على الشارع . الأم والأخت والأخ الصغير فى الغرفة الأخرى على السرير الصدىء الذى جاءوا به معهـم من البلد . وضـع عبد العزيز فى غرفته سريره وطاولة الكتابة وكرسيا . فى الردهة كنبة ورف عليه بضعة

كتب . فيما عدا ذلك لم يكن فى المسكن شىء على الاطلاق سوى قشف الحيطان المبقعة ذات الألوان الرخيصة . يتردد عبد العزيز فى يومه بين عمله فى المصلحة حيث التحق بعد تخرجه وحيث الحيطان الشاهقة المدهونة بالزيت البنى تعلوه طبقة من التراب ، المزينة بأوراق رخيصة عليها آيات قرآنية فى الغرفة التى يعمل فيها ، وبين بيته هذا مرورا بجحيم المرور فى شارع شبرا مرتين فى اليوم .

لكنه بدأ يألف المكان . بدأ يمتلىء احساسا بأرض الفرنوانى . بالسكة المرصوفة التى تحدها من الجنوب والتى يخرجون للتمشى عليهـا عصرا هو وخاله الأوسـط فى الجلاليب والشباشب حتى يصلون الى محطة الأتوبيس والمقهى المجاور والراديو الموضـوع على مكبرات صوت مزلزلة . اذ ذاك يمران على مبنى المباحث العامة القديم الذى يشـبه دوارا ريفيا يلحظانه معـا فى صمت ويمضيان . ويتصور أن كل ساكن فى أرض الفرنوانى يلقى عليه هذه النظرة المبهمة فى كل مرة . أحيانا يتمشى على الترعة التى تحد أرض الفرنوانى من الشرق . وهى قناة صغيرة قليلة الغور يستحم فيها العيال ولا تمر بضعة أيام دون أن يغرق واحد ويرتج الجو من صراخ الأهل حتى أن الترعة أصبحت معنى مخيفا لكل واحد . كذلك مزلقان القطار الذى لا ينقطع عبور أمم الناس من عليه ولا تمر بضعة أيام دون أن يختطف القطار السريع منهـم واحدا وينطلق الصراخ . ويبقى كدس البيوت فى منخفضه بين الترعة والسكة والمزلقان ومبنى المباحث .

كان عبد العزيز يهفو به الشوق فيرحل الى منيل الروضة لزيارة شوقى . كان شوقى قد تزوج ورأى عبد العزيز فى ذلك محاولة باسلة للانقضاض على النسق القديم ، الكنبات والصورة والبساط من الصوف البلدى . حل محل هذا كراسى من الطراز الحديث وسجاجيد ، وضعت فى الصالة مائدة وصيوان وكراسى . كذلك

أصبح للزوجين غرفة لها فرش من الحرير وخزانة وسرير من خشب الموجنة . انسحبت أم شوقى بدولابها وكنباتها وصورة الزوج الراحل الى الغرفة الداخلية .

على أن المحاولة وان كانت باسلة الا أنها بدت هشة وغير مصممة . بسرعة غير عادية كلح كساء الكنبات وضاعت لمعة حرير غرفة النوم . اتضح أن خشب الموبيليا من النوع الردىء فتقشر فى بضعة أماكن . كذلك فان بياض البيت تساقط واختفت بسرعة مسحة الضوء التى كانت اشاعتها فى الغرف والصالة نصاعة الألوان . عادت العتامة تسيطر وانكسف ذلك الاحساس بالانتصار الذى كان أعقب الخلاص من الجو القديم وحل محله الاعتقاد بأن ما تم انما هو استبدال الأصالة القديمة ببريق زائف تحول الى رثاثة مسيطرة تملأ الروح ندما ومرارة .

أما البيت الذى شيدته والدة صلاح فى الدقى فى أربعة طوابق فقد كان مصيره مؤلما . اذ اتضح أن المقاول غش مواد البناء . لم يمض وقت طويل حتى تشقق المبنى من أوله الى آخره . اضطر السكان الى مغادرته . لم يبق مسكونا الا شقتين فى الدور الأرضى واحدة مؤجرة والأخــرى يسكنها صلاح مع والدته . ومن حزن الوالدة على البيت كانت تقضى معظم وقتها عند ابنتها فى شقة الاسكندرية ويبقى صلاح من أجل عمله هنا .

الشقة الأخرى المواجهة فى الدور الأرضى تسكنها مع زوجها وأولادها سيدة تقضى سحابة يومها على كرسى خلف شراعة بابها تراقب صلاح . لو رأت فتاة معروفة لها تدخل شقته اتصلت بأهلها تبلغهم . لو لم تكن البنت معروفة لها استوقفتها وسألتها ووبختها لدخولها شقة عازب وهددتها بالفضيحة . اذا طرق واحد على بابه خرجت له وسألته من هو وماذا يريد من صلاح . اذا سمعت عنده

راديو أو تليفزيون خرجت تدق على بابه وتطلب الهدوء والا أبلغت الشرطة ٠

يزور عبد العزيز صلاح ويجلس اليه يسمعه يحكى هذه الحكايات كلها ٠ يقول ان هذه السيدة ترفض دفع الايجار من سنين حتى يتم اصلاح البيت ٠ والحق أن الجدران كانت مقلقة والأرض هابطة وبياض الحيطان ساقطا والتراب يسفى ليل نهار على الفرش ٠ صلاح قابع ، سجين هذه الشقة وهذه السيدة ، يكاد يفقد عقله من رقابتها عليه ليل نهار ٠ لا يجد ما يتسلى به سوى التليفون يهمس فيه ساعات طويلة وهو يبتسم واهنا وينفض تراب سيجارته ويرشف الشاى من كوبه ٠

يعود عبد العزيز آخر النهار الى أرض الفرنوانى مهزوما ٠ يجلس على كرسيه الى طاولته يتأمل قبح الحيطان ٠ يكاد يختنق ٠ يتمنى لو كانت له روح ريفى مؤمن قادر على التحرر من قهر كوخه ٠ يأتى الى القاهرة من قريته البعيدة ٠ فى يديه سلته وفى قلبه شوقه الأبيد ٠ يدور ينظر ٠ يتملى من المشاهد ثم يعود لناسه واخوانه يحكى فى لحظة انتصار وتحقق خارقة ٠ يقصد عبد العزيز المشاهد ٠ لم يعد فى قلبه ايمان الا بجلال التعبير عن الرغبة فى الخروج من اسار القمىء والقبيح والمبتذل ٠ تلك الرغبة المثابرة من أول الزمان وعلى مراحل التاريخ ٠ سجل يغزوه التآكل والبلى ٠ القاهرة ركام من القبح والضجيج يزحف باصرار على هذه الرسوم الشواهد ٠ يرعبه أن ركاما موازيا من القبح والضجيج يزحف على الأرواح فيجعلها عاجزة عن الوقوف فى وجه المحل والبلى ٠ ناس بلا روح ولا ذاكرة فى مدينة بلا روح ولا ذاكرة ٠

بدأ عبد العزيز يعمل فى كتابه الأول ٠ يجلس الى طاولته وأمامه دائرة نور صغيرة ٠ الحيطان حوله ناشعة ٠ المطر ينهمر

فى الخارج والريح ترج باب الشرفة المخلع وتنفذ الى الغرفة من الشقوق والفروج ٠يحمل نفسه بأكوام الملابس ليكون قادرا على المواصلة ٠ يتمنى أن يكتب صفحات تفيض انطلاقا وتدفقا وقوة ٠ لكن الكتابة تهمى فى داخله كالدموع ٠ لكنه لا يستطيع أن يمنح أكثر مما يملك ٠ وهو يكتب لخلاصه الذاتى أكثر مما يعنى قارئا ٠

بعد أن كتب ثلاثة فصول ذهب الى أصحابه فى المنيل ٠ بصعوبة أقنع شوقى وسامى بزيارته وسماع ما كتب ٠ بدأ يقرأ لهما ٠ تمدد سامى على السرير وشوقى يدخن شاردا وهو يقرأ فى خوف ٠ بعد أن انتهى نظر اليهما ٠ نهض سامى واستوى جالسا ثم مال وضرط ضراطا عاليا ٠ شوقى قال هادئا أن عليهم أن يمضوا ولم يمانع عبد العزيز ٠ بعد ذلك بمدة فقد قدرته على تذكر الغرفة التى حدثت فيها هذا ٠ هى ليست غرفته بالقطع ٠ وهى غرفة لم يرها قبل ذلك ولا بعد ذلك ٠ والمساء كان فيها كابوسيا ٠ طوبات الجدران حمراء والضوء كاب والسرير عار وحركات الناس شبحية ٠

مشى معهما حتى محطة الأتوبيس يتفكر طول الوقت أن الشارع الى بيته وسخ موحل وأن البيت عار وكئيب وأنه ليس من العدل تحميل الناس هذه المشقة ٠ كان احساسه بالخجل شديدا ٠ سلم عليهما فى صمت آب ٠ نشر الصفحات أمامه وبدأ يكتب ٠ لا سبيل غير ذلك ٠ الأماسى كئيبة وينبغى أن يوجد منصرف آخر لنظراته غير هذه الحيطان والا فانه قهر لا يحتمله القلب ٠

مرض الأخ الصغير بالالتهاب الرئوى وساءت حالته ٠ ثم حدث أن تصلبت أقدامه وتعوجت بطريقة عجيبة ٠ الأم تكدس عليه ما فى البيت من فرش وتجلس الى جوار سريره مرتجفة وعبد العزيز يذرع القاهرة بحثا عن مسكن آخر ٠ وفق بعد عناء الى شقة فى عمارة جديدة ٠ ثلاثة غرف وصالة وحمام ومطبخ ٠ وهى نظيفة هادئة مشمسة ، كان هذا تغيرا حاسما فى حياته كلها ٠

أصبح له غرفة يعمل بها وغرفة لنومه · استقلت أمه وأخته بالغرفة الثالثة بعد رحيل الأخ الذى تزوج · بدأ يبذل كل جهده لتأثيث الشقة وتزيينها واشاعة الجمال فيها · يجهد أن يتجنب القرار الخاطىء وأن يجد الصواب · لم يكن ذلك سهلا ، لكنه على أى حال أعاد بياض المسكن كله واختار بعد تردد طويل أنسب الألوان لكل غرفة · كذلك أثث غرفة نومه ثم غرفة نوم أمه وأخته · فى غرفة عمله اشترى طاولة للكتابة كبيرة من طراز قديم وكرسيا كبيرا وبساطا · وضع فى الصالة كنبتين فى ركن ، وفى الركن الآخر مائدة للطعام وأربعة كراسى · أصبح بيتا دافئا نظيفا · عاريا الى حد ما ورخيصا هنا وهنا ومبتذلا فى بعض أشيائه لكن يوجد الأمل دائما فى استدراك النقص ·

رويدا رويدا اتضح أن بالبيت خللا جوهريا مؤداه أن الغرف كلها مفتوحة فى الصالة مما يفقد البيت الكن والستر ويجعل غرفه مرتبطة بالصالة فى حضور متوتر · والأروح للنفس أن تكون بالبيت غرفة بعيدة مقصية مكنونة ينام الواحد فيها أو يلجأ اليها أحيانا · يجلس عبد العزيز على مكتبه طويلا يحاول أن يجد حلا لهذه المشكلة فى بناء جدار أو نقل باب أو غير ذلك دون أن يوفق ·

ثم حدث أن سكنت الشقة العلوية أسرة عديدة العيال يسرفون على ما يبدو فى استخدام الماء لتنظيف بلاط الأرض فترتب على ذلك نشع السقف وبدأ البياض يتقشر ويسفى على بسط الأرض طول الوقت · ثم أن صاحب البيت استخدم بوابا له زوجة وثلاثة عيال ينامون تحت السلم أمام الشقة مباشرة · كذلك فان الجيران الملاصقين يخرجون فى الليل اناء القمامة أمام الباب · تأتى القطط تكبه وتقيم حوله مناحة طول الليل وفى الصبح يكون على من يريد أن يخرج أن يدوس على هذه الأقذار · وقد أصبحت الحديقة الصغيرة حول البيت مقلبا لزبالة الأدوار العليا · وأصبح الجلوس فى الشرفة غير مريح بعد أن سكن فى

مواجهة عبد العزيز رجل يجلس فى شرفته ويحدق فى جيرانه بالحاح جارح ·

لم يكن عبد العزيز يستطيع أن يحمل أشياءه ويرحل · كما أنه لم يكن يريد ذلك · فهو لا يأمل أن يكون وراءه تحسنا · بل انه يجد أنه من حسن الحظ أن الرحلة الطويلة الشاقة انتهت الى هنا · فناس كثيرون لا يجدون ما وجد · يئوب الى البيت ويعكف ويحاول تحسين الأوضاع هنا وهنا · لكن البلى والرثاثة تسابقه وتسبقه · فكل شىء فى البيت رخيص ومقام بعجلة وبلا اتقان · تقشرت الأحواض وتلفت مواسير المياه وتوصيلات الكهرباء وتهرأت الصنابير وتعطلت مزاليج الأبواب والشبابيك · تذكر عبد العزيز خاله الأكبر وسباقه مع البلى والكآبة لمحاولته تحسين بيت ميت غمر حتى يئس وهزم ورحل ·

هو الآن فى حلوان · كبر وسمن لكن لا زالت له طيبة الوجه ونبالة الجبين · يسكن بيتا لا يختلف عن بيت ميت غمر ولا عن البيت الذى يقيم فيه عبد العزيز الآن ولا عشرات البيوت التى قضى هذا الخال حياته عاكفا على الطاولة يرسمها للناس · فى هذه الدائرة دار الرجل عمره حتى الشيخوخة لا يستطيع أن يتجاوز هذه البيوت البسيطة العمارة حتى الابتذال يحاول أن يشيع الجمال فيها بلا جدوى حتى ييأس ويهزم ويرحل الى بيت آخر ليس أحسن من الذى سبقه · يرى عبد العزيز أدوات عمل الخال حوله وآثار محاولاته فى كل زاوية · تماما كما يذكرها أيام ميت غمر · ويرى الخيبة على وجه خاله أكثر عمقا وأوغل فى الروح والجسم الذى هده الكبر والمرض · يقوم عبد العزيز يئوب الى بيته ·

لكنه عند عودته فى ذلك اليوم كان البيت خاليا لغياب الأم والأخت · كان ظهرا حارا زامتا والمسكن صامتا كقبر · خلع قميصه وجلس صامتا على الكنبة · وبهدوء لبس قميصه مرة أخرى

وخرج الى باب الحديد ركب القطار الى طنطا · مشى فى الشوارع التى يعرفها · شارع المديرية حتى ميدان الساعة ثم البورصة حتى ميدان البلدية ثم انحدر الى شارع الملكة فريدة ·

تأتيه بأســاء أيام تلمذته فى طنطا · ضاعت التفاصيل من ذاكرته لكن ندوب الجروح باقية فى القلب · العصر حار خانق مترب والشوارع وسخة مزدحمة صخابة وهو يكاد يبكى قهرا · انحدر فى شارع جانبى غير مرصوف · والفقر والرثاثة والنتانة وأكداس القمامة وبرك الماء القذر · العيــال والنساء والخنازير والصراخ والعراك المرير وهو يمشى يتدفع ، أهلكه الحر والضيق ، يريد أن يصل ويجلس ·

فى طرف رث فقير من أطراف طنطا وجد البيت · دفع الباب وصعد السلم · الشقة قائمة تحت وهج الشمس · الشقة بجانبها لم يتم بناؤها · على السطح بضعة بطات لاهثات وكلب مربوط يهز ذيله خائفا منافقا · باب الشقة مفتوح وخلفه كنبة تجلس عليها بنت عمته · تماما كما كن يجلسن على الكنبة فى البلد وكان عبد العزيز يذهب الى دارهن ليس لأنها أحسن ، بل لأنه يتصور أن فى القلوب هنا احساس بقهر هذه المنازل ورغبة فى الترك وحلم بشىء غير محدد · قال لابنة عمته انه يريد أن يتزوجها ·

بدأوا يعدون للامر عدته · لم يكن فى وسع عبد العزيز الا أن يضيف قليلا للوضع الراهن فى مسكنه · كلمته العروس مخافتة عن رغبتها فى شقة خاصة بها وأن تؤثثها كمــا تؤثث العرائس شققهن · عرف عبد العزيز أن هذه رغبة عمرها وأنه يطالبها بالكثير لو طالبها بالتنازل عنها · لكنه لم يكن يستطيع الانفاق على مسكن له ومسكن لأمــه وأختــه · أيضــا ولو كانت زوجته مدرسة · وعليه فقد جاءت زوجته الى بيته ·

مرت أيام قلائل طيبة · بعد ذلك بدأ فى البيت عداء بين أمه وزوجته · لم يكن يتصور أنه يمكن أن يوجد بين بشرين · تسممت

كل الآبار ، كل الكلمات . تسمم الهواء ، أصبح محملا بالكارثة تقع فى أية لحظة واذا وقعت فهى مريرة مسمومة الى نخاع العظام . من الصبح حتى الليل . ينام عبد العزيز الظهر جنب زوجته وكل عصب فى جسمه صاح متوتر منتبه لما يحدث فى غرفة أمه . يشرب شاى العصر وهو يتلفت بينهما يقيس كلماته . لا يأمن الخروج فى المساء الا أمن أنهما نامتا .

الاحن والحقد اللذان كانا فى وسط دارهم فى القرية انتقلا الى هنا أمر وألد . لم يتغير شىء سوى لون السقف والجدران . سقط الزمن ودائرة العذاب لم تقف عن الدوران ، يحس فى صوته العذاب فى صوت الأب الذى كان يقبل على وسط الدار يهتف بالنساء يكفهن عن الشر . يعرف عبد العزيز فى صوته رنة الألم فى صوت الأب . كيف يصارع الواحد ضد قدر كهذا .

قبلت الأخت الصغيرة أول من طلب يدها . ذهل عبد العزيز وبكى فهى لم تتم دراستها وهو يعلم أنها تفر من الجحيم . حاول أن يثنيها فأصرت . راحوا وجدوا لها سكنا فى زقاق ضيق من قرية ضمت للقاهرة بحالها . ببيوتها الطينية ووسخها . المسكن غرفتان راكدتا الهواء معتمتان . يتردد عبد العزيز على الأخت يجدها جالسة صامتة فى العتمة ، كل شىء مترب وسخ تمسحه بيدها حتى لا يراه أخوها .

بعد عمله يمر عبد العزيز بالمقهى حيث يصادف أحيانا بعضا من أصحابه الكتاب . بعضهم قريب الى قلبه الى درجة الحب . يعرف أن حظوظهم ليست خيرا منه . بل ربما أسوأ كثيرا . يمضى أيبا . يتفكر . يمكن أن يخلق هذا الجيل أدبا شامخا بهذا العجز الذى يثقل الظهور . نرى أى لون من المعجزة هذا . ليس الفقر هو المشكلة . انه لون من العجز يشمل الماضى والحاضر والمستقبل يحولهم الى لحظة عذاب واحدة ثقيلة الوطء حتى يستحيل الافلات من قبضها على العقل والقلب والروح .

وذات عصر نقر الباب طارق متردد . كا نصلاح مبتسما عذبا رقيقا هادئا . امتلأ قلب عبد العزيز بتوقع مشئوم . قال صلاح انه جاء يودع فهو مسـافر الى أمريكا . ثم مضى أنيق الخطوة كما كان طول عمره . وفى زيارة لعبد العزيز عند بعض أصحابه تعرف على سيدة كانت سكرتيرة صلاح فى عمله وكانت فى وداعه على الطائرة . حكت أنه كان يلوح للناس ، من على سلم الطائرة وأمه تهتف به . سقط من طوله ، تحدر على درجات السلم حتى الأرض حيث قام مرة أخرى يحاول الصعود وأمه تبكى دموعا سخينة .

راح عبد العزيز يزور شوقى بعد طلاقه . أم شوقى لابسة الأسـود تعيد ترتيب الأثاث القديم فى البيت وهى مهدومة حزنا وعبد العزيز لا يعرف أين يجلس ، اختلطت فى رأسـه الصـور والخيالات . يشرب كوبة الشاى ثم يسلم على شوقى منصرفا الى بيته . لا يكون قادرا على قول كلمة فى الشجار الدائر بين أمه وزوجته . يمضى صامتا مطأطىء الرأس الى الشرفة . شىء فى داخله يكبر ويكتسح روحه . شىء أسود بشع كريه . تتبعه زوجته وتلاحقه بالنعيب وتسرع أمه الى المنظر وتزاحم بدعاواها دعاوى زوجته . يتوسل اليهما مخنوقا أن يبعدا عنه . يمضيا . لكن الزوجة تدور الى الغرفة . تظل توجه له الكلام من خلف زجاج باب الشرفة . لا يسمع كلماتها لكن ملامح وجهها واشارات يديها تفزعه يرجوها ملوحا بقبضتيه أن تصمت . لا تريد أن تكف . يدفع بقبضتيه بكل قوته من خلال الزجاج الذى تهشم مفرقعا وذراعا عبد العزيز العاريين تمزق لحمهما وتفجر الدم يطرطش الجدران والأرض وملابس عبد العزيز ووجهـه . وانطلق صـراخ الأم والزوجة .

قال الأخ الأوسط الذى جاء من الاسكندرية على الخبر أنه يرى فى هذا نوعا من الجنون وأنه خائف على عبد العزيز من تكرار حادث كهذا . وتأمل عبد العزيز اللحظة التى ابتعدت قليلا

الآن ورأى فيها شيئا خاصا خارقا لابد أن يكون جنونا · وافق مقتنعا بكلمات أخيه · لكن ليس ثمة شيء يمكن القيام به · يعرف عبد العزيز أن اللحظة قائمة فى داخله وفى قمينة بأن تثور فى أى مناسبة · وأنه لا شيء ممكن لايقاف هذا ·

كره ذلك الهدوء الذى أعقب هذه الحادثة · وذلك الاحساس بالذنب على وجه الأم والزوجة وكلمات الأسف ورقة الأصوات والعبارات · كان يكره هذا ولا يعلق عليه · يتأمل ذراعه المربوطة فى صمت · يعرف أنه لا ينتمى لهذا البيت · انتهى ارتباطه الروحى به وهو قاعد ومنتظر · لا ثقة له بالآتى لكنه لا يستطيع غير أن ينتظر ·

قيل له ان قسيسا ألمانيا فى زيارة قصيرة للقاهرة ويريد أن يراه · قابل الرجل فى فندقه فى شارع فؤاد · صعد الى غرفة الرجل · جلسا بجوار الشباك يشربان كأسين من الويسكى · الشباك يطل على ساحة عجيبة مليئة بمبان شائهة كأنها حديقة حجرية · لم يكن عبد العزيز واثقا أنه فى وعيه تماما · لكنه ظل يتأمل المنظر المقبض ويقول للرجل كل آن ·· شباكك يطل على حديقة حجرية ·· حديقة حجرية ·

وباصرار رقيق واصل الرجل حديثه عن مؤسسته وأنهم يدعون عبد العزيز أسبوعا فى برلين الغربية · يتسلل نوع من الفرح غامض خافت الى روح عبد العزيز · يقبل عرض الرجل وهو لا يحول عينيه عن مشهد الشباك · المساء يحل وكتل البناء الحجرية تزداد جهامة وتستغلق فى غموض آسر مقبض · ان عبد العزيز لم يسترد بعد صمته تماما · كما أن الويسكى يؤثر فيه · لكنه لا يريد أن يعود الى البيت · يريد أن يذهب الى شاطيء النيل مثلا ، ويجلس يتأمل النهر فى المساء ويترك لدموعه العنان ويحلم بالسفر · بالابتعاد ·

***

كان عبد العزيز مأخوذا وعاجزا عن السيطرة على مشاعره ٠ والى ذلك فقد كان الوقت مساء فلم يستطع أن يميز ما حوله تماما ٠ هبطت العربة الى شارع منحدر صامت أضواؤه هادئة وعلى الجانبين أسوار حدائق البيوت الصغيرة ٠ القسيس الذى يقود العربة ويصحب عبد العزيز الى مبنى الأكاديمية يكاد يقف عند كل مفرق ، يتلفت الى الجانبين ثم يمضى حذرا حتى وقف أمام باب سور حديقة الدار ٠ الممشى عبر الحديقة تسقط على أرضه أضواء من مصابيح مخبوءة تحت ظلل عاكسة تحملها قوائم لا ترتفع عن الأرض أكثر من ذراع ٠ يسيران على هذا البساط من دوائر الضوء والحديقة الصغيرة على الجانبين فى عتامة ليلية ساجية ٠

فتح الباب الخارجى ، كبير من خشب غليظ له شراعات من الزجاج عليها شبك حديدى ٠ خلفه مباشرة باب آخر بعد ممشى نحيل على نهايتيه من اليمين والشمال بابان صغيران ، الباب التالى يؤدى الى ردهة خفيضة الضوء ٠ على اليمين السلم الدائر المؤدى الى الدور العلوى ، تقف الى جواره حاملة معاطف ضخمة ٠ على اليسار فى الحائط خبوة خلف عقد مكسور وفيها مرآة كبيرة فى

اطار من الموجنة البنى • أمام هذه الخبوة مكتب صغير واليه كرسى • فى الحائط معلق تمثال للعذراء تحمل الطفل المقدس من خشب هجين • فى صدر الردهة باب زجاجى كبير على يمينه وشماله يمتد ممشى مؤدى الى أبواب أخرى •

صعدا السلم • خشبى دائر حول الحائط مفروش بالسجاد يسمع صوت تطاعنه تحت أقدامهما ، يؤدى الى فسحة أمام صف طويل من أبواب الغرف ، بيضاء نظيفة ، وعلى اليمين والشمال فى نهايتى الفسحة بابا حمامين • دخل عبد العزيز غرفته • طويلة نحيلة شديدة النظافة وشديدة البساطة • ضغط على قلبه تقارب جدرانها البيض وضوؤها الباهر • لابد أنها شريحة من غرفة أكبر • امتحن الجدار ، رن تحت نقرات أصبعه • ستارة كبيرة بنية اللون من قماش رخيص ، لابد أنها تستر نافذة أو باب شرفة ، لكنه لم يحاول أن يتحقق • أخرج كتبه ، رصها على طاولة جنب الحائط ، اليها كرسى وعليها مصباح صغير • علق ملابسه فى صيوان خشبى شديد البساطة • حوض للغسيل شديد النظافة ، عليه مرآة صقيلة • فى الحائط لوحة عليها تعليمات بالانجليزية والألمانية توضح طريقة استخدام الغرفة ، وقف عبد العزيز صامتا قليلا • تمنى لو يهرب من هذا الضوء الباهر • تمنى لو يعود الى القاهرة •

أضاء مصباحا صغيرا جنب السرير ، وآوى الى فراشه • فراش ضيق • الملاءات والألحفة والحشايا هشة شديدة النظافة ولها خشيش اقشعر منه بدنه • رغم تعبه الشديد جافاه النوم ، يحس عينيه جاحظتين فى الظلام • عاوده بشدة احساسه بالزنازين • أضاء مصباح السرير مرة أخرى • أخذ كتاب روميش وبدأ يقرأ قصة « الليل الرحم » • أخذته القصة بعيدا • نام وخلف جفنيه مشاهد ريفية مليئة بالكآبة والحزن •

فى الصباح أزاح الستارة · كانت تحجب باب شرفة تطل على حديقة البيت التى ليس فيها شىء سوى بساط من الحشائش عليه ندف من الثلـــج ومنحدر الى مـــاء البحيرة التى فى عرض ترعة كبيرة ، على الشاطىء الآخر غابة شتوية عارية الأشجار · وعلى اليمين والشمال أشجار شاهقة عارية · المشهد رائع · تأمله قليلا · لكن قلبه واجم وجوما يثقل على رغبتـــه فى أن ينـــزل ويمشى ويكتشف ويتحسس هذه الأشياء ·

نزل السلم الى الردهة الى قاعة الطعام · ناس كثيرون كل أربعة يجلسون الى طاولة · بين القاعة والمطبخ جدار فيه كوة ، تأتى صوانى الطعام والقهوة · الجدران عليها صور فوتوغرافية مكبرة لأطفال وزهور ومناظر طبيعية · نوافذ كثيرة تطل على ذات الحديقة · عبد العزيز تائه بين ناس كثيرين لا يعرف منهم أحدا · يطل على الحديقة لا يحول عينيه عنها · يرد تحية من يحييه بأدب ، ويقول كلمات قليلة ، ثم يعود الى الحديقة ومن خلفها البحيرة والأشجار الشاهقة العارية ·

انتقـل الجمـع الى قاعـة الاجتماعات من الباب الزجاجى الكبير · صفوف من مقاعد وطاولات واطئة · الجدران عليهـــا مشاهد مصورة لنشاط الأكاديمية واحتفالاتها · من القاعة ومقابل الباب الزجاجى الكبير تنبعج مساحة الشرفة الكبيرة تدور حولها تحكم تقفيلها أبواب زجاجية خلفها فى الشرفة اصص هائلة فيها أنواع عجيبة من الصبار · ومن مجلسه لم يعد عبد العزيز يرى الحديقة · قنع بمراقبة شجرات الصبار ·

كان عليه أن يقول شيئا · لم يكن فى حياته قد خاطب جمهورا يزيد على عدد أصدقائه أو يتجاوز دائرتهم · لكنه كان غائبا كأنما يحلم · لأنه كما يوجد الجرح يوجد البرء · لكن كلمة الجرح مطلقة وكلمة البرء يرد عليها دائما قيد الندبة حتى يجعل معناها

مجازيا . وهو فى القلب والروح جسد ملىء بالندوب . حتى حال الكيان الى مسخ فيه خصال الوحوش تهرب من الخوف الى قعر الذاكرة المظلم . ومن هناك تكلم كأنما يهمس بطيئا ينتظر تمام ترجمة الجملة ليأتى بأخرى . تكلم عن أن هناك اسلامين .. اسلام قصر الخلافة والمسجد الجامع والمدارس والأسبلة ، واسلام الأكواخ والمصليات على الشواطىء والترع . وفى ذات المساء أضيئت فى تلك القاعة أضواء باهرة وكان مرهقا الى النهاية . أشقاه لحد البكاء أن يحكى عن جيله من الكتاب . رغم الضوء الباهر كان صوته يأتى من قعر خوفه الحالك الظلمة . الرحلة الكئيبة الى بيت ابراهيم أصلان فى شارع قطر الندى فى امبابة . الى بيت يجيى الطاهر فى الجيزة .. عفن الشوارع وقبضة البيوت الرطبة على القلوب . وقال ان ندوب الجروح فى الروح والقلب جردت الكيان من الطموح وأفعمته شوقا . وحينما قيل له أحسنت لم يصدق . لم يكن يريد أن يصدق . كانت قضيته وحده ولم يكن يبحث عن متحمسين لها .

فى مساء تال جلس فى غرفة أخرى الى دائرة صغيرة من الناس ، فيهم القسيس الذى دعاه من القاهرة ليتكلم فى هذا الملتقى . قالوا له الآن انتهى الأمر ونشكرك وعليك أن تعود ، وهو قال لهم أريد أن أبقى قليلا . سمح له بهذا ، وبقى مقيما فى غرفته ينزل ذلك السلم فى مواعيد الطعام والقهوة ، وفيما بين ذلك يخرج ليتمشى أو يدعى لزيارة فى المساء أو ينزل المدينة ليتفرج على متحف أو حديقة أو غير ذلك .

البيوت فى الشوارع المحيطة تتوسط دائما حدائق بديعة ، يمتد بساطها الأخضر من السور حتى جسم البيت . والبيوت آيات فى جمال العمارة ورونق الألوان . كان عبد العزيز يتمنى أن يرى ما بداخلها ، ويتسلل بعينيه أحيانا الى ما وراء الأبواب والنوافذ ، لكنه لا يستطيع أن يكون لنفسه مفهوما . يمضى يتمشى فى الشوارع النظيفة تحت الأشجار الباسقة . ان هذا لفردوس وان

الناس هنا لخليقون بأن يكونوا ملائكة . لكنهم ليسوا كذلك . يراهم فى عرباتهم الفارهة أو ماشين على الطوار ، لا تقع عيونهم عليه ، رغم أنه يحدق فيهم ، كأنما هو كيان شفاف لا يرى . يعمق فيه هذا تحفظه الشديد واحساسه العميق بأنه غريب وغير مرغوب .

يعود الى دار الأكاديمية . يدور ويتأمل الشجيرات الصغيرة فى الحديقة ويتحسس حبل الفروع بالبراعم فى انتظار الدفء . يمضى الى شاطىء البحيرة . يبقى ينظر للماء طويلا فى شرود . يئوب الى البيت . يصعد درجات السلم الى شرفة الصبار . يتأمل النباتات الناعمة بالدفء خلف الزجاج . يمضى عبر القاعة الى السلم . يسمع وقع أقدامه فى البيت الصامت . يحيى من يقابله تحية موجزة ويمضى مسرعا الى غرفته .

كان يفكر ترى ماذا تعتقد الفتيات العاملات هنا بخصوصه . انه يتجـول فى البيت كالشبح يحيى بكلمـــة موجزة ثم يمضى مسرعا . انه يتمنى لو تعرف عليهن وسمر معهن لكنه منذ وصوله الى برلين فى حالة جمود غريبة لا يمكنه الخروج منها . وما ان يسمع أن لقاء ما أو غير ذلك ينظم فى البيت ، حتى يأوى الى غرفته لا يبرحها حتى ينتهى الأمر . وعليه لم تكن بالنسبة له مفاجأة مزعجة حينما أعلن أن بقاءه فى البيت لم يعد أمرا مرغوبا فيه . قال له القسيس ذلك وانتظر أن يقرر السفر لكنه قال هامسا انه يريد أن يبقى مدة أخرى ، وعليه حاول القسيس أن يجد له مكانا آخر .

انطلقت بهما عربة القسيس مغــادرين فانزى صــاعدة فى الشارع الجانبى الى الشارع الرئيسى الكبير ، الذى يعبر البحيرة بجسر جميل ، ثم يمشى وسط الغابات حتى وسط البلد ، ومن هناك مضيا حتى حى بريتز . هناك أعطى عبد العزيز غرفة فى مبنى تابع لكنيسة الحى . وهى غرفة مخصصة فى الأصل لضيف يحل بالكنيسة لأمر ما .

كانت الغرفة صغيرة جدرانها مغطاة بورق شـمعى شاحب مطبوع عليه زهور بارزة صغيرة ، وكان أثاثها طاقما من كنبة وكرسيين كبيرين ومنضدة ثم أخرى صغيرة جنب الحائط عليهـا مذياع من الطراز القديم فى صندوق كبير من خشب الموجنة اللامع · فى الناحية الأخرى صيوان للملابس وتخت صغير كان عبد العزيز ينام عليه ليلا · كان ثمة أيضا حامل نحاسى يتدلى منه مصباح عليه كمة من الحرير البنفسجى المرسوم · وعلى الأرض المبلطـة بالخشـب المصقول سـجادة صغيرة وفى الجانب القصى حوض غسيل ومرآة · وعلى الحديقة يطل شباك بعرض الحائط كله ، تغطيه ستارة برتقالية ويطل على مبنى الكنيسة القديم · وعلى اليسار بيت القسيس ، وعلى اليمين قاعة الاجتماعات الفسيحة ذات الجدران من الزجاج والستائر وهذه المبانى الأربعة تحيط بفسحة مبسوطة بالنجم الأخضر ، وعلى حوافها أشجار شاهقة ·

عاش عبد العزيز سـعيدا فى هذه الغرفة · يجلس أمـام الشباك ، يتناول افطاره ويشرب شايه ، ويتأمل الحديقة والأشجار القديمة الشاهقة ومبنى الكنيسة القديم ثم طيور الشحرور السود الصفر المناقير ويسمع شقشقها · يبقى هكذا ساعات شاردا · يتأمل الربيع يسرى فى عروق الفروع ويتأمل تغير لون الأفق يقرأ خطابات أتته أو يرد عليها · وفى المساء يسمع الموسيقى من المذياع القديم الجيد ونشرات الأخبار باللغة الانجليزية · حتى اذا ما أصابه الملال شرب كأسا من النبيذ أو كوبا من البيرة وبدأ يغنى لوحده أو يتمشى جيئة وذهوبا لساعات طويلة ·

لكنه فى الصباح كان عليه أن ينزل · وهى لحظـة غريبة حينما يغلق باب الغرفة خلفه ويتلفت حواليه · على يساره باب مسكن ملاحظ البيت وعلى يمينه مسكن طالب اللاهوت الشـاب وزوجته الصغيرة الجميلة · يتأمـل البابين فى تلفتـات سريعة ويكون خلاصه أن يجدهما مغلقين صامتين ، ينزل السلم البازلتى

الأسود اللامع الى الدور الأرضى حيث المطبخ الشاسع · هناك فى ركن ثلاجة حاجياته القليلة · وعلى الموقد الهائل المجهز على أحدث طراز والقائم فى وسط المطبخ يمكن أن يصنع شايه أو يطهى طعامه · وفى أحد الرفوف الممتدة بطول الجدران يوجد صندوق نقود يضع فيه ثمن ما يأخذه من بيرة أو نبيذ · ويسعد لو لم يجد أحدا أثناء كل ذلك · وينصرف مسرعا ·

وتكون الرحلة الى المرحاض والحمام أطول · فهمـا فى البدروم ينزل اليهما دورا آخر فى العمق · هناك أيضا ماكينة غسيل الثياب · يضع فيها أشياء حتى يتم غسيلها ثم ينشرها على الحبال المخصصة لذلك فى نفس الغرفة ثم يكوى ما يلزم كيه ويعود · يمر على صندوق الخطابات لو وجد خطابا عاد به الى غرفته يجلس يقرأه ويشرد متفكرا مددا طويلة ، وان لم يجد شيئا آب خائبا ، يغلق الباب خلفه ويجلس فى كرسيه يتأمل الأشـجار والطيـور ومبنى الكنيسة ·

بدأ يدرك المرض يتسلل الى جسمه وروحه · الصيف يتقدم ، ما ان يضحى النهار حتى تمتلىء الغرفة بالشمس · فاذا ما أغلق الستائر كبس حبس الغرفة على روحه · كان أحيانا يأخذ كرسيه وينزل يجلس تحت شجرة فى الحديقة · زوجة القسيس وزوجة كاتب الكنيسة وزوجة ملاحظ البيت ، لكل واحدة منهن ركن فى الحديقة قريب من بيتها تزرع فيه زهورها وتضع فيه كرسيها تتمدد عليه شبه عارية فى الشمس · وفى العصر تتنادى الأسر يشربون النبيذ معا ، أو يشوون لحم الخنزير ، أو يمرحون حول أى شىء ، وهو على حافة هذه الحياة ينظر · انهم شديدوا التهذيب وشديدوا الكرم معه · لكن ثمـة حائلا ما كالسلك الشائك يفرق الجانبين بالخوف ·

كان عبد العزيز يخرج يتمشى ساعات طويلة كل يوم · يجلس على شـاطىء بحيرة صغيرة فيهـا سرب من البط تأتى

العجائز والأطفال اليه يطعمنه . ويأتى آخرون يجلسون يصطادون السماك بسناراتهم ، يرقب عبد العزيز هذا مليا ثم يمضى يتمشى فى الغابة . فى جزء منها كانت جماعة من أشجار قديمة شاهقة سوداء الفروع خضراء الأوراق خضرة ذهبية ناصعة ، لا يمكن أن يكون لها مثيلا . يتصور عبد العزيز أن ذلك هو الفردوس . ينصت يسمع بكل وضوح صوت تشقق البراعم رغم ضجة شقشقة العصافير . هكذا طويلا ثم يقوم يمضى .

ان هذا حى يسكنه ناس كلهم فيما يبدو حسنو الحال . نظيفون متأنقون لهم سنة فى التنزه والتحية وتبادل المجاملة . لكن عالمهم مغلق عليهم بمزاليج باردة مصممة رغم أن عبد العزيز يقلب فيهم عينين مفعمتين ودا وابتساما ولا يفهم لماذا يتصرفون وكأنه ليس هناك . أهو الخوف من هؤلاء الذين أتوا من الشرق من حيث الفقر وتكدس الناس فى الجحور . وسأل عبد العزيز نفسه أترى يبدو فى سمته وشارته ما يدل على جروح روحه من عمر طويل قضاه فى حبس الغرف المقبضة . أتراه وصم بلا أمل .

يعود الى غرفته . الستارة مسدلة اتقاء الشمس . ينظر من الفروج يتأمل أجساد السيدات الممددات فى الشمس شبه عاريات . الآن يعرف أن ملامح وجهه على أقبح صورة ممكنة وأن فى عينيه جوعا مذعورا كجوع الوحوش . وأن قلبه وروحه تتقلصان تقلصات شائهة . يعرف هذا ويريد أن يوقفه ولكنه لا يستطيع . يعرف أن الناس بدأت تحس بتلويات أعماقه . وأن النساء يدركن هذا فى لمسات يديه المريبة وتصرفاته المرتجفة . يعرف هذا ولا يستطيع أن يوقفه .

يواصل تأمل جسد زوجة القسيس الأبيض المتورد وشعرها المتهدل الأشقر ونظارتها السوداء ، متمددة على ظهرها فى الشمس تقرأ كتابا . يتلفت حوله يأخذ بضعة صور وصلته من

قريته أخيرا وينزل مندفعا ناحيتها يتكلف أنه يود أن يفرجها على هذه الصور . تفزع قليلا لكنها تبدى أنها مسرورة بهذه الصور تقلبها وتتأملها . تحس بعينيه تمسحان جيئة وذهوبا على تفاصيل جسمها . تتركزان على بين وركيها حيث نتوء جسم فرجها من حرير سروالها والشعيرات البنية مطلة من حفاظ القماش النحيل . يتقلب جسمها ويتلوى قلقا تحت فتك نظراته التى تعلق لحمها جيئة وذهوبا . ثم فجأة تجمع الصور وتعيدها مادة يدها له كأنما تقول له : الآن أرجوك اذهب . يأخذ الصور من يدها ويعود الى غرفته مكسورا يعذبه الندم على ما فعل .

كان يعلم أنه ينبغى أن يمضى لكنه لا يعرف كيف ولا الى أين يخرج لساعات طويلة ثم يئوب . وفى مرة كان الوقت متأخرا فى المساء حينما آب ، وضع يده ليخرج المفتاح لم يجده . طرق باب ملاحظ البيت . هو يعرف أنه لم يأو بعد الى فراشه لكنه لا يرد . ظل يطرقه وهو يحس مذلة لا حدود لها ولا أحد يجيب . أخيرا طرق جرس مسكن طالب اللاهوت ، نزلت الزوجة وفتحت له الباب الخارجى . طرق مسكن ملاحظ البيت مرة أخرى ليعطيه مفتاحا ليدخل به غرفته ولكن أحدا لم يرد .

لا جدوى ، جلس على درجات السلم البازلتى المصقول اللامع . صامتا مهدودا . الوقت يمر بطيئا أليما وأعضاؤه تيبس . يقوم يتمشى على بسطة السلم حتى يدوخ يجلس مرة أخرى . رأسه مركونة على الحائط وهو فى شبه غيبوبة فتح عينيه . كانت زوجة طالب اللاهوت واقفة أمام باب مسكنها مرتكنة على السياج الحديدى تسأله ألم يرد عليه أحد فقال لها : لا ، كانت ترتدى قميص نوم شفيفا فوقه ينسدل رداء حريرى . جسمها مكتنز وشعرها أشقر جعد . قماش القميص يشف عن تكور ثدييها وقرص بطنها . وتصور عبد العزيز أنه يرى بخار جسدها الدافىء فى برودة السلم وأن روحه تنشق رائحتها ودفئها . وأنهـا تستسلم بعينيها المفعمتين

حنانا لروحه التى تعانقها وتتشبث بها . لكنها همست أنها لا تستطيع عمل شىء ، وعادت الى مسكنها وأغلقت الباب وراءها . أما صورتها ودفئها فهما فى روح عبد العزيز وعقله الى الأبد .

كان عبد العزيز قد تعرف على عدد من الدارسين المصريين فى برلين . كان كثير منهم يقيمون فى بيت طلبة هائل من أربعة طوابق . المبنى طويل عبارة عن ممرات مستطيلة مضاءة بالنيون ومفروشة بالسجاد ، وعلى الجانبين صفوف من الأبواب يؤدى كل واحد الى مسكن صغير من غرفة واحدة ، فيها ركن للمطبخ وسرير ودولاب فى الحائط وطاولة وكرسى وشباك بعرض الحائط مطل على الخارج وخلف الباب مباشرة يوجد حمام به مرحاض .

كان عبد العزيز يتردد عليهم كثيرا فى هذا البيت . غالبا ما يجدهم مجتمعين عند أحدهم ، ينضم اليهم ويبدأون فى ثرثرة لا تنتهى ، ولا أحـــد يريد أن يقوم أو أن ينهى الحديث . فاذا ما أصبح الحديث مملا لعبوا الكوتشينة . كل ذلك وشرائط أم كلثوم دائرة والجرائد العربية والكتب ملقاة . فاذا جاعوا بدأوا يطبخون الملوخية أو العدس أو يعدون الفول . كل ذلك ولا أحد يفكر فى الخروج من باب الغرفة ، وقد يستمر ذلك نصف يوم أو يوم أو يومين . وفى تلك المرة استمر اعتزالهم هذا يومين . فجأة أحس عبد العزيز أن برلين تلاشت من وجوده كلية وأنه فى الحقيقـة يعيش وقتا قاهريا . انتابته حالة تشبه أن تكون ذعرا . قلب بصره فى الأصدقاء من حوله . لم يفتهم التساؤل فى عينيــه . يردون عليه بنظرات ثابتة . نعم انهم يرفضون برلين ويعيشون القاهرة التى فى قلوبهم . قام واقفا زاعقا « لا » لقد تقلبت عليه أشد المساكن قبحا وعاش مدن مصر الكئيبة ، لم يخدع نفسه عن حقيقة ما يحيط به أبدا ، وهو سيترك برلين ويئوب . لكنه لن يفعل ذلك قبل أن يعرفها . وهو لن يعيش فى مدينة يكرهها ، يغمض عينيه عنها ويتصور نفسه فى مدينة أخرى .

قال لكل الناس انه وجد غرفة فى بيت من بيوت الطلبة بعد أن وجد مكانا فى الجامعة . كان واضحا أن القسيس فرح بذلك ، فقد كان شعب كنيسته غير فاهم تماما لماذا يبقى هذا العربى كل هذه المدة فى غرفة الضيافة ؟ ولم يكن يرتاح لذلك . وسلم على الجميع وأخرج متاعه قدام الباب ثم أغلق الباب ومضى . هكذا وجد عبد العزيز نفسه فى الشارع لا ينتمى لشىء ولا يدرى ماذا يفعل والصديق الذى وعده بنقل متاعه لم يأت . بقى ينتظر أكثر من ساعتين ، تفكر فى يوم مثل هذا فى القاهرة . يوم أن طلب عمه منه أن يرحل ولم يوفق الى سكن ، وخرج من عمله وبقى يتسكع فى الشوارع لا يدرى أين يذهب . مضى على ذلك اليوم خمسة عشر عاما . وها هو ذا يتكرر بذاته . احساسات الخوف الأليمة بذاتها ، ثم ينتهى الأمر الى غرفة قبيحة وأيام كالحة متتابعة . تصور عبد العزيز أن ثمة خللا فى دماغه ، فى تكوين جسده وعواطفه وأنه اذا لم يواجه هذا بحسم فلا أمل .

جاء الصديق بعربته وحمل المتاع الى مقر عبد العزيز الجديد . حملا الحقائب فى أيديهما وصعدا السلم الى الباحة الشاسعة التى تحيط بها البيوت فى شكل ثلاثة أضلاع مستطيل . مال على اليسار الى البيت الأول وفتح عبد العزيز الغرفة الأولى على اليمين . فتحها ودخلا . أدرك احساس صديقه المصرى بالقرف من قذارة الغرفة وعطانة ريحها . ابتسم فى مرارة وصمت . سلم الصديق ومشى . بقى عبد العزيز ساكنا قليلا . فرش شيئا من متاعه ونام . هكذا نام يوم أن عثر على غرفة السطوح فى شبرا . نام مقهورا لكنه عاجز حتى عن أن يقلق .

حينما استيقظ خرج من الغرفة الى الباحة المستطيلة . حولها تسعة بيوت . أربعة على كل جانب من الجانبين الطويلين . التاسع فى الصدر على العرض وهو مكون من شقق للمتزوجين فيما عدا ذلك يتألف كل بيت من ثلاثة عشرة غرفة على طابقين فى كل طابق

دورة مياه . فى الطابق الأرضى مطبخ مشترك للساكنين جميعا . وهو واسع فيه مائدة للاكل وركن للجلوس والمسامرة . وهذه الباحة فى وسطها مستطيل من النجيل الأخضر على حافته صف شجيرات مقصوصة . كذلك حوض ماء الى جواره تمثال وأرائك مثبتة للجلوس . تحيط بالبيوت من الخارج مساحات من النجيل ثم سور من السلك . كذلك توجد قاعة للاجتماعات ومنزل خاص لمراقب البيت وملاعب للكرة . أحس عبد العزيز بالراحة بين الطلاب ، هنا لا يحس بالغربة التى كان يحسها فى غرفة الكنيسة . ثم انه أصبح طالبا يستطيع أن يعمل ويكسب ولا يكون دائما معتمدا على القسيس الذى دعاه ، انه الآن فى برلين يملك أمر نفسه وسيرى ماذا يكون من أمره فى هذه المدينة .

حصل على أول عمل من مكتب وساطة الجامعة هو وطالب تركى . مضيا معا الى محطة القطار الكهربائى تحت الأرض وفى أيديهما استمارة المكتب وفيها عنوان الشركة لا يعرفان كيف يهتديان الى المكان . التركى فى غاية العصبية . يتكلمان ألمانية عاجزة . اشترى التركى خارطة للمدينة ، واكب يبحث فى الفهرس عن الشارع ولا يجده . أخيرا اتضح أنه يبحث فى القسم الشرقى من برلين . كان عبد العزيز يرقب الحيرة صامتا . يدرك تصاغرهما وغربتهما أمام لغز المدينة . لكن الرغبة فى الفرار لم تساوره . سيبقى وسيرى .

هكذا كان عبد العزيز يحصل كل آن على عمل من مكتب الوساطة فى الجامعة ثم يمضى وحده أو مع بعض طلاب آخرين أجانب فى معظم الوقت وألمان أيضا أحيانا ، يمضون يبحثون عن العنوان حتى يجدون الشركة التى أرسلوا اليها . كان يتأمل وجوه هؤلاء الزملاء . أتراك وعرب وزنوج وهنود وباكستانيون وأندونيسيون ويوغسلاف ومن أمريكا اللاتينية . توحد وجوههم المخافة والدماثة والحساسية المرهفة والذكاء الخارق . كان

عبد العزيز يتفكر ، هؤلاء عبروا البحار فرارا أمام القدر المروع فى الجنوب · أترى يثقل كل واحد منهم ما يثقله · لم يكونوا يتكلمون عن هـذا · يعيشون اللحظـة بتركيز وانصراف تام ، لا يغيب عنهم أدق تفصيل منها ·

عمل عبد العزيز فى مصانع صغيرة ، فى بيوت قديمة ، فى أحياء فقيرة · يرى الجهد الذى بذل فى طلاء الحيطان وتحسين شـكلها · لكن عبء المبنى القـديم والحيطـان الصلدة والآلات الحديدية الهائلة ، عبء كل هذا على مشاعره كان ضاغطا · كان يغرق نفسه فى العمل حتى يفر من هذا القبح · ما يرفع رأسه حتى يرى عمالا ألمان وأجانب جلود وجوههم متخددة مدبوغة وفروات رؤوسهم خشنة مجدبة وأسنانهم تالفة وعيونهم ذابلة · الصورة مقبضـة والناس يعملون بدأب كالنمـال يطاردهم خوف غامض لا يمكن ادراك كنهه ·

يفـرح عبد العزيز بالانصراف ، يفـرح الآخرون أيضا ، ويهنئون بعضهم بهذه الساعة فى تحية تقليدية ألمانية ، ينطلق يتنسم الانطلاق فى الشارع عائدا الى سكنه ، ليعود من جديد فى فجر اليوم التالى الى عمله فى مصنع صغير كهذا أو فى الشركات الكبرى · هناك عمل فى صالات هائلة مضاءة بالنيون الباهر تجرى الشرائط بطولها متمهلة والعمال على الجانبين تتحرك أيديهم فى سرعة ونسق ودأب ، تجمع القطع الصغيرة فى آلات أكبر · الشريط لا يترك للواحد ثانية واحدة يتأمل أو يفكر أو يشرد أو حتى يهرش رأسه · كل ساعتين يقف الشريط لمدة خمس دقائق يمارس فيها العاملون رياضة بدنية تحت اشراف مدرب يقف على منبر عال وفى فمه صفارة ، حتى لا يصابون بتيبس الأعضاء · يعودون الى عملهـم مرة أخرى ، فى أذن كل واحد حشـوة تحميـه من الضجيج · بذلك لا يتحدثون مع بعض ، والآذان مليئة بالوشيش خلف الحشوة المانعة ·

فى الغداء يذهبون الى مطعم المصنع اللامع من النظافة والأناقة . كان عبد العزيز يعجب بالصالة والمطعم ونظافة المبانى بشكل عام ، لكنه بعد عمل بضعة أيام صارت أعصابه حطاما . يدخل ويخرج ولا يعى ما حوله من فرط الارهاق والتوتر . يعود الى سكنه مكسورا يتفكر فى الجيوش التى تبكر فجر كل يوم الى هذه المصانع ثم تئوب فى المساء . يصعد الدرجات من الشارع الى الباحة التى تدور حولها البيوت ، فى بيت الطلبة يميل يسارا يدخل غرفته . فى طريقه يحيى الناس متعبا والناس ترد فى قرف . شىء يملأ القلب كمدا .

كانت الكنيسة الايفانجيلية قد أقامت هذا البيت للطلاب . وقررت أن توكل ادارته الى الطلبة الساكنين . بمرور الوقت أصبحت سياسة الطلبة لا تعجب الكنيسة . كفت عن اجراء أية اصلاحات تكون مطلوبة . استشرى البلى فى الجدران والغرف ، أصبح كل ساكن يحاول أن يبيض غرفته أو يحسنها على قدر امكانه . تحول المكان الى شىء قبيح متهدم . الى ذلك فقد كان يقوم بالنظافة فريق من سيدات المان . حاول الطلبة أن يقوموا هم بالتنظيف بأجر بحيث تتاح فرصة للمحتاجين منهم ايجاد مصدر رزق . ولما كان هؤلاء لا يقومون بالعمل بالعناية المطلوبة ، فقد اصبحت دورات المياه والأرضيات مباءات نتنة مقيئة . كان الطلبة يجتمعون كل أسبوع تقريبا فى قاعة الاجتماعات ويرسلون بالخطابات والمندوبين الى الكنيسة للتدخل ، والكنيسة لا تحرك ساكنا .

يعود عبد العزيز من هذه الاجتماعات الى غرفته . السقف ينشع من المطر وبقعة الماء تشغل معظم السقف وتنزل على الجدران فى الأركان . لذلك لم يحاول أن يقوم ببياض يعلم أن نشع الماء سيتلفه فورا . تعود على هذا كما يعتاد المريض علته يعيش بها ويتكلم ويضحك وهى فى قلبه . وفى المساء كانوا يذهبون الى بار فى البدروم بالى الأثاث والمصابيح . فيه حاكى جهير . يشربون

البيرة ويرقصون بين الجدران المسودة الساقطة البياض حتى يسقطون تعبا · يعود عبد العزيز الى غرفته ·

تعرف فى دروس اللغة الألمانية على زميل تركى أبدى استعداده للمساعدة فى ايجاد سكن لعبد العزيز · صحبه الى حى قديم يسمى بالألمانية برج الصليب · بدءا يصعدان فى العمارات القديمة ، تواجههما من دخولهما روائح الطبيخ وماء الغسيل بالصابون · زعيق النساء وعياط العيال وروائح النتانة · الشاب التركى يصعد السلالم الخشبية المتهالكة الميادة بهمة ، وعبد العزيز يتبعه على مضض ويريد أن يعود من توه لكنه يتبعه أدبا · الشاب يطرق أبوابا مفتوحة على آخرها يخرج له العيال باكين صارخين سائلى الأنوف واللعاب ، ثم تأتى من خلفهم الأم سمينة بيضاء منكوشة الشعر وسخة الثوب مشغولة اليدين · يتحدثان طويلا بالتركية ، ثم يعرضون على عبد العزيز غرفا يلاحظها بعينين عمياوين لا يسأل عن سعرا ، يرفض بتخاذل وينزل هاربا والشاب التركى وراءه يسأله لماذا ، وهو لا يجد جوابا ·

يحس أنه لم يبعد كثيرا عن القاهرة · تلك الرموز الفاجعة التى تلخص شيئا يوشك أن يكون أسطورة من الشقاء والغباء والبلادة · يئوب الى غرفته مهدودا · يرقد على التخت الضيق فى الركن يتأمل بقعة نشع الماء فى السقف · تمضى عليه هكذا ساعات طويلة · يقوم متكاسلا محزونا يجلس الى طاولة كتابته يراجع دروسه للحصة القادمة · وفى المساء يدخلون عليه بعض المعارف من العرب فى برلين · طلاب أو عمال تجمعهم الوحدة فى الغربة والألم · يأكلون أو يشربون الشاى ثم ينفض سامرهم · يسلمونه مرة أخرى الى غرفته الموحشة ·

أصحابه هؤلاء لا يسكنون خيرا منه · كان يتردد كثيرا على بيوتهم · يسكنون المنازل القديمة التى بنيت قبل الحرب والتى

ما زالت تدفأ بأفران الفحم • يقوم الفرن فى ركن الغرفة كخزانة ملابس • وعلى الواحد أن ينزل ليجلب الفحم من البدروم ، أسفل المنزل ، يحشو به الفرن ويشعل فيه النار ويغلقه • لكن الغرفة تمتلىء دخانا ، اذا هبت الريح كبست المدخنة من أعلى المنزل فلم يتسرب الدخان بل رجع الى الغرفة يدوم فيها •

والفــرن قادر على أن يدفىء غرفة واحدة • وبذلك تبقى الصالة الضيقة التى ليس فيهــا فرن باردة كالثلاجــة • كذلك المرحاض والحمام • وفى الفجر يبرد الفرن وتتثلج الغرفة ولا يكون بوسع انسان أن ينزل ليجلب الفحم ويوقد الفرن • لكن الناس الذين فى سكنهم حمام ومرحاض يعتبرون سعداء • فالواقع أن كثيرا من هذه البيوت تخلو مساكنه من هذه المرافق • فقط يوجد مرحاض لكل أربعة مساكن ، كائن على بسطة السلم •

كان عبد العزيز يتفكر فى آلاف العمال الذين ينبغى أن يكونوا فى مصانعهم فى السادسة صباحا • يقفون جامدين على السلم فى حــرارة تنــزل الى عشرين تحت الصفر ، ينتظــرون دورهم لقضاء حاجتهم ثم يمضون الى أعمالهم • عمال وموظفون صغار وطلاب • ألمــان وأجانب يعيشون فى هــذه البيوت التى يرفض أصحابها تجديدها حتى تئول للســقوط فيبنون مكانها عمــــارات حديثة ، يؤجرون المساكن فيها بأغلى الأسعار •

يئوب عبد العزيز الى غرفته • فى الأيام التى لا يعمــل ولا يدرس فيها يبقى جالسا الى طاولة كتابته يتأمل من شباكها الناس المارين • الكل يرقب ساعى البريد • يعرف من عاد بخطاب يراه فى يده أو على ملامح وجهه ويعرف من لم يأته بريد • وهو أيضا يخوض التجربة كل آن • وقد جاءه خطاب من جامعة لندن يمنحونه مكانا ويطلبونه لأداء امتحان فى اللغة الانجليزية • وقد صمم على أن يذهب • ولما كان شديد الحذر فقد كتب لصديقه أنه

يريد أن يستأجر لنفسه غرفة . لكن الصديق أصر على أن يضيفه ، حتى يرى ما يكون من أمر قبوله بالجامعة .

الصديق يقيم فى لندن ، فى شارع صغير بيوته من طراز انجليزى أصيل . الابنية من طوب أحمر ، وأطر الشبابيك من الجص الابيض ، اذكرت عبد العزيز بالروايات التى قرأها عن انجلترا والافلام التى رآها . فتح الصديق الباب . ثمة شقة فى الدور الأرضى تسكنها أسرة زنجية . صعدا سلما خشبيا الى الدور الأول حيث يقيم الصديق . فى صالة بيته سلم يصعد الى الشقة الأخيرة فى الدور الثانى . انها ليست صالة اذن بل ممرا للناس الساكنين بأعلى ، وعلى جانبيها غرفتان ومطبخ وغرفة للعيال .

رغم كرم الصديق الا أن عبد العزيز ألح أن يسكن فى مكان آخر . البيت مقبض والجدران قديمة وسخة البياض والأثاث قبيح وكل شىء مؤثث بطريقة تضغط على الشعور . بقيا يدوران بحثا فى المدينة الكبيرة حتى وفقا الى أستاذ مصرى فى الجامعة يؤجر غرفا فى منزله . تم انتقال عبد العزيز اليه فى اليوم نفسه .

بيت انجليزى من نفس الطراز . قديم رث بالطريقة ذاتها . كان عبد العزيز ينام فى غرفة الجلوس القريبة من الباب . فى المساء يجلس مع صاحب البيت أمام المدفأة . وهى لم تعد مدفأة بالمعنى المألوف . حيث وضع فى الزمن القديم خشب الوقود وأضرمت فيه النار ، توضع الآن طلمبة متصلة بمواسير سارحة فى البيت كله تحمل اليه الماء الساخن . جنب الطلمبة ومتصل بها موقد هائل لتسخين الماء يئز طول الوقت حتى يضطر الواحد لرفع صوته اذا تكلم . والماء يسخن فى المواسير حتى تلتهب ويصير البيت خانقا . يسرعون لضبط عدادات جهاز التسخين فى عملية مستمرة مربكة .

من تلك الردهة أمام (المدفأة) تنحدر درجة سلم الى المطبخ شديد الرثاثة ، له باب يؤدى الى حديقة عارية الا من شجرة تين واحدة تأتى بثمرات عجيبة ماسخة هشة تنغلق نواتها اذا حاول الواحد شقها · صاحب البيت يتأملها حزينا ولا يعرف لآفتها سببا · لقد دفع فى البيت تحويشة العمر ويؤجر بعض الغرف لسداد باقى الأقساط · قرر عبد العزيز أن يعود الى برلين ·

لقد أعطى له مكان فى الجامعة · ودار به الأصدقاء فى كل مكان ليروا امكانية عمل يكسب منه قوته ويمول دراسته ، لكنه تحقق أنه لا فرق كبير بين برلين ولندن · وأن قدره هناك ليس خيرا من قدره هنا · انه أحرى أن يكون شيئا لاصقا به يتحرك معه · الأولى أن يبقى فى برلين حيث ألف الأشياء والأسماء وأن ينتظر حتى يرى نهاية تلك الرحلة العجيبة ، رحلة حياته ·

عاد الى بيت الطلبة مرة أخرى · أحوال البناء تزداد سوءا ، والحاح الطلبة على الكنيسة يزداد قوة ، والكنيسة مصرة على ألا تحرك ساكنا · تقل بالتدريج نسبة الألمان وتزداد نسبة الأجانب الذين لا يكونون بالضرورة طلبة دائما · يتقسمون الى مجموعات حسب البلاد التى أتوا منها ، وتتصارع المجموعات العرقية المختلفة · يحركها خوف مسعور ، حول مكاسب صغيرة ويصبح الجو فى بيت الطلبة لا يطاق · تغيب بعض الوجوه ، يسأل عبد العزيز ويعرف أنهم خرجوا بعد أن وجدوا لأنفسهم مساكن خاصة · كذلك تجد فى البيت وجوه · أجانب تدفعهم مأساة الجدور المروعة فى الجنوب ، تدفعهم دفعا الى الشمال الغنى · يأتون وتتكرر الحكاية فى رتابة قاتلة ·

كان عبد العزيز يعرف كثيرا من الذين أقاموا ردحا من الزمن ببيت الطلبة ثم خرجوا منه ليسكنوا فى مساكن خاصة · مجموعات من الطلبة والطالبات تجمعهم قرابة فى الفكر والمزاج · لم تكن

قدرتهم المالية تتيح لهم الا السكنى فى المنازل البرلينية القديمة . يزورهم هناك . يرى محـاولاتهم لتحسين أحوال هـذه البيوت ، وتنظيفهـا . يرى ثورتهم على الغـرف القديمة وطـرز الأثاث والألوان ، ويرى عجزهم عن ايجاد الجديد . كان يجرب معهـم الأماسى الحزينة التى يحاولون أن يضفوا عليها البهجة بالخمر والضحكات . لكنهم لا يمكنهم التحرر من ضغط ضجيج السيارات والآلات المروع فى الشارع . يحشون آذانهم بالسدادات المانعة للصوت ، والتى تباع فى كل صيدلية ، ويأوون الى النوم .

يعود عبد العزيز الى غرفته . القلب مخنوق بيأس قاتل . أين المفر . هل هو قدر مسلط لا يرد ؟ لكن برلين مدينة جميلة يعشقها كأنها أم رائعة مضمومة الشعر مشرقة العينين نظيفة الأظافر مكوية المرولة . يعشق بحيراتها وغاباتها . شوارعها الواسعة المشجرة . ربيعها الأخضر المزهر . نوارات المشمش البرى حينما تسقط من الأشجار وتفرش الشوارع الهادئة ببساط حريرى فى حى بريتز . أحب عبد العزيز برلين وعرف حزنها قعيدة خلف الأسوار المحدقة بها تسجنها بلا رحمة . عرف هجرة الشباب منها وارتفاع نسبة العجائز فيها عن أى بلد فى العالم . سجن يضغط على أعصاب المدينة حتى يكاد يزهق أنفاسها . سجن لا يبرره شىء فى العالم ، والمدينة باقية تناضل .

كان عبد العزيز يمشى فى المدينة كلما أتيحت له الفرصة . يتأمل مبانيها القديمة . قصورها وكنائسها ومنازلها . مبانيهـا الحديثة . يزور المعارض والمتاحف . يقضى الأماسى فى مسارحها ، فى حاناتها ومقاهيها الأنيقة . لكن اليوم مهما كان رائعا ، والمساء مهما كان بهيا ، فان عشرات الألوف من ناس هذه المدينة يئوبون من هذه الحيـاة الجميلة الى قبور مساكنهم . يبيتون مصمومى الآذان بالصمامات . يحمون أنفسـهم من هدير السـيارات فى الشوارع ، ويتنفسون فى نومهم هواء لوثته أدخنة المصانع ، يتفكر

عبد العزيز الذى تقبره غرفته . ان هذا الجمال مثل شجرة مسمومة تمد جذورها فى جثث الناس الذين تنكفىء عليهم الغرف المقبضة . جمال مسموم يعيش جنب القبح ويغتذى عليه فى عالم ملعون . يغمض عينيه مسلما روحه الى عذاب الأحلام .

كتبت له زوجته انها قادمة هى وأولاده . حينما رأت غرفته ذعرت . كانت تبكى مثل حيوان يؤخذ للذبح . حاول عبد العزيز جهده أن تعطى له شقة فى البيت المخصص للمتزوجين ، غرفة كبيرة وحمام ثم قمرة ملحقة بها تتسع بالكاد لشخصين ينامان متجاورين . كان عبد العزيز وزوجته وطفلاه يجلسون معا فى هــذه الغرفة الواحدة طوال النهار . القمرة خصصت لنوم الطفلين فى الليل . يجلسون طول النهار معا . ما يأتيه الواحد منهم أو يتركه واقعا تحت بصر الثلاثة الآخرين بلا رحمة . لو أراد واحد منهم الانفراد بنفسه لحظة فأين ؟ الغرفة واحدة والحيطان والسقف كالحة سيئة البياض وفرش الأرض ناحل . الفقر والقبح يطلان من الأركان . ينفجر الزوجان فى عراك مروع والعيال ينظرون مرعوبين .

كلمات العراك مروعة بشعة تلقى على عبد العزيز وحــده مسئولية هذا القدر وتؤاخذه عليه ، عبد العزيز يناضل عن نفسه التهمة . يدفعها بحرارة واصرار . صور حياته كلها تمر أمام عينيه كالبرق . يرى المواقف كلها والآلام كلها . يقول من أعماقه « لا » انه عمل كل يوم من أيام عمره بلا كلال . لم يتهاون ولم يكسل . ان ذلك القدر أبشع من أن يكون خطئا شخصيا أو تقصيرا أو غباء ، انه خلل مروع يعصف بالحياة كلها ويحولها أسطورة من القبح والتشوه .

لكن عبد العزيز كان يخرج كل يوم ليجد عملا يعود منه برزق للعيال . كان يحاول بكل قوته أن يخفف أثر هذا القدر المجحف على الأسرة الصغيرة . يأخذهم الى نزهات طويلة فى المدينة .

يخرجون الى طلعات خلوية فى الغابة وعلى شطآن البحيرة . يزورون المعارض والمتاحف . يأكلون أحيانا فى مطاعم لطيفة . بجهد خارق يحصل على هدنة صغيرة فى جو عائلته ، ثم ينفجر العراك مرة أخرى مكتسحا كل شىء . وذات يوم وجد الطلاب الاجانب يتناقشون ثائرين حول القانون الذى صدر يحـرم على الطالب الأجنبى أن يعمل لكسب عيشه أكثر من شهرين فى كل عام . أحس قلبه يختنق وخلايا جسمه تتفتت وهو يسمع . لم يكن أمامه سـوى أن يعـود الى غرفته . يجلس قبالة زوجته يسمع ولا يستطيع أن يقول .

وفق الى عمل دائم فى شركة للحراسة . يعمل أيام السبوت والآحاد والأجازات الرسمية ما مجموعه ستين يوما فى العام موزعة على الشهور توزيعا عادلا . فرح بالعمل لأنه مستقر يوفر عليه عناء البحث كل مرة . وهكذا كل يوم سبت وأحد من الأسبوع حينما يكون كل الناس فى العطلة ، حينما يخرج الناس فى حلل الأجازات ، تبقى زوجته وطفلاه فى هذا المسكن ينتظرون أوبته ، وهو قد قام من الفجر الى عمله ، ويعود فى المساء ليجدهم فى أتعس حالاتهم النفسية والمزاجية . ودائما يكون المساء جنونا من الحقد والكره المسموم .

كانت الشركة مكلفة بحراسة هذه المنازل فى الليل كل يوم ، وفى النهار والليل كل يوم سبت وأحد . مكاتب شركات وادارات ومصانع . بيوت قديمة غالبا ، فالبيوت الحديثة محروسة بأجهزة اليكترونية . بيوت معتمة عالية الحيطان بعيـدة السراديب وهو وحده فى هذا الصمت . يدور فى الممـرات الطويلة يرى أمامه بصعوبة ويحمل ساعة التوقيت يمر على نقط المفاتيح يرشقها فى الساعة الواحد بعد الواحد كل مدة معلومة . ترن خطواته فى الصمت . يتداخل فى نفسه . كم هو ضئيل أمام كمية الجهامة والصمت والعتامة المكدسة فى أقباء هذا البناء . يسأل ما الحكمة

فى وجوده ليحرس وهو بلا حول ولا قوة · ويقولون له اذا حدث شىء فان المبنى يستحق مبلغ التأمين فقط اذا كان فيه حارس ، وهذا هو القانون ·

يتأمل · نعم · انه محبوس هنا فقط لكى يصرف للمبنى مبلغ التأمين حالة حدوث شىء واذا حدث هذا (الشىء) وراح هو نفسه ضحيته فسوف يصرف لزوجته وأولاده مبلغا آخر على سبيل التعويض وتنتهى القصة · قصته · وقصة أكثر من ألف حارس آخر تعرف على عينات كثيرة منهم · ناس لم يجدوا فرصة أو نجاحا فى أى عمل آخر · عجائز محالين الى المعاش أو مرضى أو مشوهو حرب أو شباب مدمنين خمر أو مصابين بالضعف العقلى أو معوقين جسديا أو ذهنيا · يذهبون فى الليل الى هذه الأبنية القديمة · يبقون وحدهم فى الصمت والعتامة والجهامة · فرادى مكسورين تتلقى قلوبهم هذه الأصداء وهم صموت ناكسون · أغلبهم لا يقرأون ولا يكتبون · يسلون الوقت بالخمر · جلودهم مسودة بالمرض · مزاجهم عكر بالادمان · ملامحهم شوهاء منحرفة · مقطوعين عن أى علاقات اجتماعية مثل قطاط برية جرباء مريضة ·

كان عبد العزيز يتفكر ·· نعم ·· هذه هى النهاية · هذا هو البيت ، وهذا هو العمل · وتلك هى الرفقة والفريق الذى ينتمى اليه · يخيفه الى الرعب أن يكون هذا قدره · يناضل بكل ما أوتى من قوة · يأخذ معه الى العمل حملا من الكتب يقرأ ويعمل كل دقيقة بلا هوادة خطط مشروعه للدكتوراه وسلمه الى أستاذه · قبل الأستاذ أن يرعى عمله · زاره مع زوجته فى بيته · رأى عبد العزيز كيف تأثر الرجل حينما رأى المسكن والعيشة · خجل أنه عرضه لهذه التجربة الشعورية · حاول أن يكون مرحا وأن يكسر كآبة الجو بكثرة ما بذل فى الطعام ·

بدأ الأستاذ يعمل بلا كلال على توفير منحة دراسية لعبد العزيز ونجح فى ذلك وساعدتهم سيدة ــ لها طفل مع أطفالهم فى الحضانة ــ على ايجاد سكن فى وسط البلد فى عمارة حسنة . كانت الفرحة أكثر مما يحتملون . سكن نظيف واسع . غرفتان كبيرتان واحدة للعيال وواحدة له هو وزوجته ثم قمرة صغيرة لعمله . ينقلون متاعهم القليل الى السكن الجديد وكلهم أمل فى حياة جديدة فيها استقرار مادى وسكن مريح . يثبتون خزانة ثياب صغيرة أهديت للاطفال فى غرفتهم . فجأة يسمعون طرقا مزلزلا على الباب يخرجون ليروا سيدة المانية تسكن تحتهم تصرخ بأعلى صوتها انهم يزعجونها بضجتهم وانها ستستدعى البوليس .

حاول عبد العزيز أن يهدئها ، أن يشرح لها ، أن يفهم منها ، لكن كل ذلك كان مستحيلا . انصرفت السيدة وهو مبهوت . بدأوا يمشون على أطراف أصابعهم فى البيت . العيال مفعمة عيونهم بالخوف . لا يرفعون صوت مذياع ولا مرناه . المبنى الشاهق من الاسمنت المسلح كأنه مصنوع من الصفيح . اذا سعل عجوز فى سكنه سمعه الباقون . يأوون بالليل الى فراشهم حائرين غير فاهمين . يبدأ جهاز التدفئة المركزية فى الصرير . أصوات كأنها صادرة عن أشباح تجول فى البيت . ينامون نوما مؤرقا منزعجا .

هم الأجانب الوحيدون فى هذا المبنى الشاهق . السكان معظمهم موظفون صغار . باردون منطوون على ذواتهم يحيون باقتضاب ثم يزورون الى جانب ، وهم حائرون غير فاهمين كيف يسلكون تجاههم . فقط العجائز والعجوزات هم الذين ينطوى سلوكهم على نوع من المودة . ربما لا تستطيع تكويناتهم بعد كلفة الترفع والازورار . لم يكن عبد العزيز يستطيع شيئا حيال رجفة قليلة من الخوف تنتابه حينما يدخل من باب العمارة ، حينما ينسى طفل من أطفاله ويقفز لاعبا ، حينما تعمل زوجته فى المطبخ

ويصدر عن الأوانى صوت ارتطام أو غيره . فى هذه اللحظات كان الخوف ينتابه ويغالبه هو صامتا .

لكنه كان يبقى فى غرفته الى وقت متأخر من المساء مكبا على عمله . كان أحيانا يحاول هزيمة كآبته باصطناع التفاؤل ، يفكر أن عليه أن يدخر قليلا يشترى قطعة أرض فى قريته . يبنى هناك بيتا جميلا له حديقة . هناك يعيش باقى حياته قريرا . كتب الى ناس قريته حذرا يسأل عن أسعار الأرض . جاء الرد سريعا يقول ان الأسعار ارتفعت بشكل خيالى . وانه محتاج الى عشرين عاما هنا ، ليمكن أن يبنى بيتا فى قريته ، والمنحة بقى فيها عام . يحاول أن ينسى الموضوع وأن يكب على عمله .

لكنه فى الفترة الأخيرة يكتشف أن نظره يضعف بشكل مطرد . يذهب الى الطبيب ، يفحص عينيه ، ويقرر أن هناك اظلاما جزئيا فى عدستى العينين ، وأن هذا العرض فى هذا السن غير محتمل ، وأن عليه أن يفحص نفسه عند طبيب أمراض باطنية لاكتشاف العلة الأساسية فى هذا . يقرر الطبيب الباطنى أنه مصاب بالسكر . يعطيه عدة كتيبات عن المرض لكى يقرأها . يصف له الطعام الذى عليه أن يلتزم به ، ويسلم عليه مودعا مستعدا لاستقبال المريض الآخر .

يعود الى بيته مهدودا غير قادر على أن يرى السكة أمامه . فى غرفته يفرش الكتيبات أمامه ويقرأ ، الغدة تحت طحاله لم تعد تفرز المصل الذى يعمل على تنقية الدم . دمه يجرى فى عروقه مسكرا مسموما ، يحمل أوساخ الأكل من دهن وسكر ويجرى فى جسده كنهر شرير يهدم فى مخه وقلبه وكليتيه . النهاية تقف على مرأى عينيه والسكة اليها سلسلة متصلة الحلقات من وقائع عذاب لا يحتمله بشر . تذكر يوم تمزق ذراعاه من زجاج الشرفة فى بيته ثم نقل الى مستشفى العجوزة ووضع فى البدروم فى عنبر مرضى

السكر . تذكر هيئاتهم وذهولهم وأطرافهم التى تتساقط لحما منتنا . فجع كما لم يفجع قط فى حياته . ذلك هو المصير الذى يتربص خلف اليوم أو الغد أو بعد الغد .

لم يرث هذا المرض . لا يوجد واحد فقط فى أسرة أبيه أو أمه مرض بالسكر . ان حاله مثل حال المسجون السياسى (وربى) الذى ضربه مأمور سجن الوادى الجديد ضربا مبرحا ، قام منه مصابا بالسكر . ظل ينحل يوما بعد يوم حتى صار حطاما ، وقد كان قبل ذلك بطلا من أبطال الرياضة . تدهورت صحته بسرعة حتى اضطرت السلطات للافراج عنه . حيث مات بعد ستة شهور من تاريخ ضربه من مأمور السجن . عبد العزيز يتصور أن حاله مثل حال (وربى) الذى أصابه السكر من الكمد والقهر .

لكن متى أصيب ؟ هل كان ذلك يوم طرق النجار ، والد زميله وصاحب البيت الذى كان يسكن فيه ، على بابه فى عز الليل فقام مرعوبا يتخبط فى الحيطان ؟ هل كان ذلك يوم دفع قبضتيه من زجاج باب الشرفة فتمزق ذراعاه العاريان ؟ أو أن ذلك كان فى واحد من السجون ؟ أم فى برلين فى ليلة من الليالى الكئيبة بالغربة والخوف تحت سقف كالح وحيطان كئيبة ؟ ما جدوى السؤال . لقد صرعته واحدة من هذه الغرف وقد سقط بلا أمل فى النهوض .

برلين الغربية فى ١٣ يوليو ١٩٨٠

* * *

* عبد الحكيم قاسم قصاص وروائى آخر من قصاصي وروائيي الستينيات . ولد فى احدى القرى القريبة من طنطا . جاء الى القاهرة عام ١٩٥٩ . نشر أولى قصصه القصيرة (الصندوق) فى الآداب البيروتية (١٩٦٤) ، ونشر روايته الأولى (أيام الانسان السبعة) فى مصر (١٩٦٩) .

* عن روايته الأولى يقول الدكتور عبد المحسن طه بدر (فى : الروائى والأرض) أنها رواية (تقدم لنا فى جملتها رؤية متكاملة للقرية المصرية ، رؤية يلتحم فيها الذات والموضوع).

ثم ينتهى الى القول بأن (التحدى الحقيقى لعبد الحكيم قاسم سيتمثل فى روايته الثانية التى نرجو أن نلتقى بها قريبا) .

* وها هى الرواية الثانية لعبد الحكيم قاسم تصدر فى مصر . وهى صياغة فنية للحلم الفردى بعالم أقل قبحا وأكثر جمالا .

* تنتقل هذه الرواية ، مكانيا ، من احدى قرى الدلتا الى شوارع الاسكندرية الى أزقة القاهرة الى سجون مصر المختلفة ثم الى أحياء برلين الغربية . وتمتد ، زمنيا ، من طفولة الى كهولة راويها الفرد . وهى ـ فى انتقالاتها عبر الأمكنة ـ تحاول أن تسبغ الحياة على الموجودات والأشياء وتدفع فى شرايينها الدم . وهى ـ فى امتدادها عبر الزمن ـ تحاول الامساك بحلم مراوغ وبجمال مناور ، يستعصيان على الامساك .

